الباب الرابع

صور عن :

مدن وبلدان

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب أردت أن أضع بين يديك صوراً للمدن أو البلدان التى كانت عامرة بالإباضية فذكرت آجلو وتجديت وتقرت كنماذج كانت عامرة فى الماضى ثم خلت من الإباضية وذكرت وارجلان وميزاب - كنماذج كانت عامرة فى الماضى وهى عامرة الآن والحمد لله ولن تزال عامرة بهم ما شاء الله .

وهذه المدن جميعاً فى المناطق التى تحويها وتتصل بها كانت مترابطة تعطى صورة واضحة كاملة للحياة الاجتماعية والسيرة الرضية التى كان يحيا عليها الإباضية فى القطر الجزائرى بعد انقراض الدولة الرستمية .

obeikandi.com

آجـــلو

مدينة كانت تقع قرب البلدة التى تسمى اليوم « بلدة عمر » قال : عنها المؤرخ المدقق والأديب البارع شيخنا باكلى عبد الرحمن مايلى :

« مثل ذلك بلدة (آجلو) بليدة عمر القديمة وما اشتهرت به من صلاح حتى اتسمت ببلدة الصالحين » .

اشتهرت مدينة آجلو بالصلاح والعلم والعمل شهرة لم تبلغها أية مدينة أخرى قريبة منها ، معاصرة لها ، وقد بلغت من شهرتها فى الصلاح والفضيلة والنظام مبلغاً ، يسّر للخيال أن يضيف إليها بعض الخيوط ، وللخرافة أن تجد مدخلا بين الحقائق[1] . ووصفت بما وصفت به المدينة الفاضلة من حياة قويمة لحياة الفرد والمجتمع . وأصبحت بذلك مأرزاً وملجأ لرجل العلم . فكان يلجأ إليها كل من يخشى الفتنة ، أو يثور بين رجليه دخانها ، فيفر إليها ليعيش هنالك آمناً مطمئناً ، فى جو كله دين وخلق وعلم وعمل صالح ، لا تجد إليه السياسة طريقاً ، ولا البدعة مدخلا ، ولا مكائد الناس والشيطان مروّجاً ، وكان كثير ممن يعيش فى البلاد المضطربة يعد العدة للهجرة إليها ، ويوصى بنيه بذلك لأنها فى نظرهم وفى الواقع تمثل موطن السلامة فى الدين ، وقد كانت مركزاً علمياً واسع النطاق ، ومنها امتد نور المعرفة إلى كثير

---

(١) انتشرت بين الناس فى ذلك الحين خرافة تزعم أن دولة تقوم فى مدينة تسمى (جعراف) وأن تلك الدولة تملأ الدنيا عدلا ويتكفل بأمرها المسلمون الصادقون ، ولما رأى بعض الناس ما عليه آجلو من فضيلة وصلاح قالوا إنها هى جعراف التى تتحدث عنها بعض القصص بل بلغ من بعضهم إلى أن زعم أن آجلو هى جعراف وأن ملكها هو أبو عبد الله محمد بن بكر .

من البلاد وتخرج فيها عدد غير قليل من العلماء الأعلام، وكان العباد والزهاد والصلحاء يؤمونها للعبادة فيقضون فيها أوقاتاً ممتعة فى مناجاة الله ثم يعودون إلى قراهم وأحيائهم ، وقد بلغت ذروة مجدها وعظمتها فى هذه الناحية عندما اختارها أبو عبد الله بن بكر فاتخذها موطناً له ولطلابه .

كان العالم الصالح معاذ بن أبى على يسكن فى أول أمره فى قصر بنى وليل الواقع جنوب وادى أريغ ، ولكنه كان يجشم نفسه مشقة السفر مرة فى كل أسبوع ، فكان يحضر إلى آجلو مساء كل خميس ويبيت ليلة الجمعة مع العلماء والصالحين ، يحيون ليلتهم بأنواع مختلفة من العبادة كالصلاة وتلاوة القرآن ومذاكرة فنون العلم ، ويقضى صبيحة اليوم معهم مفيداً ومستفيداً ، حتى إذا صلى الظهر وحضر دروس الوعظ التى يلقيها أكابر العلماء هناك ثم صلى العصر ـ انصرف راجعاً إلى قريته قصر بنى وليل .

ولما أرهقه التعب ، وأضناه السفر ، ونالت منه المشقة ، ورأى أن الاستفادة مقصورة عليه ولا تنال أفراد أسرته الآخرين فكر فى الانتقال .

وهكذا أخذ معاذ أفراد أسرته وانتقل إلى آجلو واستقر بها بين أهلها الكرام وأتيحت له الفرصة لكى يعيش فى تلك المساجد والمجامع العلمية العامرة بالإيمان والمعرفة والعبادة . كما أتيح لولديه إبراهيم وعائشة أن يواصلا دراستهما وأن يحضرا مجالس العلم على فطاحل العلماء ، ومع أنجب الطلاب وأذكى التلاميذ .

كانت أسرة معاذ أسرة دين وعلم وفضل ، حتى ضرب بهم المثل فقيل خير شيوخ آجلو معاذ ، وخير فقيانها إبراهيم ولده ، وخير نسائها عائشة بنته . وقد اشتهر معاذ بصفات يحق له بها أن ينال احترام الناس وتقديرهم ،

فقد كان سخى النفس، سليم الصدر ، بعيداً عن المزاحمة فى أمور الدنيا يحب الخير للجميع . وماذا يريد الناس من أى إنسان أكثر من أن يكون صدره مفعماً بالمحبة والعطف ، يتسع لهم جميعاً ، وأن تكون نفسه سخية تمتد لهم بالمساعدة والإحسان، وأن يتجاوز عن دنياهم ويتركها لهم لا يزاحمهم عليها ، ولا يطالبهم بنصيبه فيها .

وقد كان لطيبة قلبه وحبه للناس وعدم اهتمامه بأمور نفسه يحسبه بعض الناس قليل الذكاء قال أبو العباس الشماخى : « والشيخ معاذ رجل صالح زاهد تقى القلب مخموله ذو نية » .

وقد درست عائشة بنت معاذ على فطاحل العلماء فى آجلو وبلغت درجة فى العلم يعز على نظائرها بلوغها، فكانت تناقش كبار العلماء فى أدق مسائل علم الكلام وكانت كثيراً ما تلزم بعضهم الحجة وتنتصر عليهم فى ميدان الجدل والحوار . وكانت تذهب فى آرائها ونظرياتها مذهب التشدد والتضييق حتى أنها كانت ترى أن من لا يعرف الصواب فى مسائل الاجتهاد غير معذور .

جمعها يوماً مجلس مع الشيخ أبى محمد عبد الله بن محمد اللنتى وجرى بينهما نقاش فى بعض مسائل العلم فقالت له : ما تقول فيمن أقر بالصلوات المفروضة إلا واحدة فقال لها : هو منافق ، ولا يحكم عليه بالشرك . فقالت له : أخطأت . بل يحكم عليه بالشرك . واستتابته من قوله فتاب منه ، إن أبا محمد اللنتى قد أقر لعائشة بما تريد ، واستجاب لها حين طلبت منه التوبة إلا أن القضية كانت ما تزال تشغل فكره ، واجتمع ذات يوم بالعالمين الكبيرين أبى زكرياء يحيى بن أبى بكر ، وأبى هارون موسى بن على فسألهما

سؤال عائشة له فأجاباه بما أجابها هو به حين سألته . فحمدالله تعالى وأخبرهما بقصته مع بنت معاذ وتوبته لها عن قوله السابق فأكد له الشيخان أن قولهم هو الصواب ، وأن عائشة مخطئة ، وأنه ما كان يحق له أن يجيبها فيتوب من الصواب إلى الخطأ . وسارت الأيام بهذه القصة وكانت عائشة كثيرة الحركة جمة النشاط ، متقدة الحيوية ماضية فى الدراسة عاملة على الاتصال برجال العلم والإفادة والاستفادة منهم حتى جمعها يوماً مجلس مع أبى زكرياء يحيى بن أبى بكر فناقشته فى كثير من مسائل علم الكلام وكان فيما وجهت إليه من الأسئلة ما يلى :

هل يعذر الإنسان بجهله للصواب ؟ . فأجاب بأنه يعذر إذا اجتهد فى مسائل الفروع . وقالت: لايعذر . ثم سألته عمن نسى رسولا فحسبه نبياً بماذا يحكم عليه . فقال : يحكم عليـــه بالنفاق قالت : بل هو مشرك ، فأجابها أبو زكرياء بلهجة فيها تأنيب بدعابة ، وإدلال بقسوة ، وتعريف بجزم : ألست أنت التى استفتيت أبا محمد اللنتى يا كليفة ؟ قالت : بلى . فعرفت هذه المسائل الثلاثة بمسائل الكليفة .

درست عائشة علم الكلام على العلامة الكبير تبغورين بن عيسى الملشوطى وكانت تفتخر به وبدراستها عليه ، وتعتبر أقواله حجة . فإذا جرى بينها وبين أحد نقاشاً فى قضية من قضايا علم الكلام كان يكفيها حجة أن تقول : قال تبغورين بن عيسى الملشوطى كذا وكذا وكان هذا فى نظرها أبلغ حجة وأسطع برهان فلا تحتاج بعده إلى مزيد كلام ومع احترامها لشيخها تبغورين وحبها له وإعزازها إياه واعتزازها بدراستها عليه وتمسكها بأقواله وآرائه كانت تقول : « رأيت كثيراً من العلماء وأهل الخبر واستمعت

إلى عدد جم منهم ، واستفدت ولولا أبو العباس أحمد بن أبى عبد الله بن بكر لمت بالجهل » .

وذلك أنها كانت تدرس على غيره من المشائخ فى شبه تخصص تأخذ عن بعضهم علم اللغة والأدب ، وتأخذ عن بعضهم علوم الشريعة والأصول وتأخذ عن غيرهم علم الكلام أو علم المنطق وغير ذلك من فروع الثقافة المعروفة فى ذلك الحين ضمن التاريخ والرياضيات .

أما أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر فقد كان دائرة معارف يجول فى كل ميدان : وكانت دروسه تشبه أن تكون محاضرات تلقى فى جميع الفنون فكان المتفوقون من الطلاب يلذ لهم سماعه والسباحة معه فى الآفاق التى يسبح فيها ، وكانت عائشة من أمهر السباحين فى علوم الشريعة بمختلف فروعها وفى علوم اللغة والأدب ، وكانت ترى أن تعلم اللغة وآدابها وما تقوم عليه من نحو وصرف واجب أكيد على المسلم حتى يستطيع فهم كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام .

كانت عائشة تمثل المرأة المسلمة المتعلمة المستنيرة التى تشارك الرجل فى جميع الميادين الثقافية دون أن تتخلى عن رسالتها كأم ترعى بيتاً وترعى أولاداً ، وكزوجة تصون نفسها وبيتها وترعى زوجها فى نفسها وفى ماله وفى بيته وتوفر له وسائل الراحة والسعادة والاستقرار ودون أن تلقى عنها ثوب الحياء والحشمة . فلم يعقها الحجاب ، ولا الثوب الساتر الفضفاض أن تناقش أذكى الطلاب وأن تتفوق عليهم .

حفظت عائشة القرآن الكريم وهى صغيرة السن وتفتح عقلها الذكى لمزيد من المعرفة ، وعندما كانت أشد ما تكون ظمأ إلى المزيد من المعرفة

وإلى الاستمرار فى الدراسة ، بلغت سن المراهقة وتفتحت فيها براعم الجمال وأشرقت عليها أنوار الشباب بعد غضارة الصبا وبراءة الطفولة . وكان هذا التحول فى شخصيتها من طفلة تلفها البراءة ، إلى صبية تطفو عليها مسحة الجمال المغرية ـ سبباً فى تغير سلوكها . فقد لاحظت أن أعين الزملاء تنظر إليها نظرات تحمل معانى مجهولة لم تكن تحس بها من قبل . وأحست بجو جديد فى بينها وبين أسرتها وهمسات عنها عندما يحسبونها فى غفلة . وفهمت ما كانوا يوشوشون به ، وأدركت أنهم يفكرون فى قطعها عن الدراسة وعدم السماح لها بالذهاب إلى مجالس العلم وهى على أبواب البلوغ وقدرت أنه ستثور بينها وبين أهلها معركة حامية تكون فيها هى المغلوبة لامحالة إذا لم تعرف كيف تعد لنفسها أسباب النصر . وفكرت فى قضيتها فى هدوء تفكيراً سليماً قبل أن يفكر أفراد أسرتها ومدرسوها بجد . وجاءت ذات يوم إلى أبيها تطلب منه أن يشترى لها حصيراً من النوع الخفيف غير العريض وطلبت من أمها أن تحضر لها عباءة ، ولما سألها والدها عن سبب هذا الطلب شرحت لهم وجهة نظرها فهى تريد أن تستمر فى دراستها على مشائخها وتريد أن لا ينشغل بها أحد وتنشغل به . ووافق الوالدان على الطلب ، واستطاعت أن تضمن لنفسها الدراسة دون أن تثير عليها غضب أحد أو نقده ، ودون أن تتبذل أو تستهتر ، فكانت تذهب إلى المجامع العلمية متلفعة فى عباءتها الساترة الحاجبة فإذا بلغت المجلس جلست قريباً من شيخها ، ثم أدارت على نفسها الحصير وتحققت فى العباءة فكان شخصها مفصولا عن الحاضرين لا تراهم ولا يرونها ولكنها كانت تستمع وتناقش وتكتب ما تشاء فى حرية كاملة حتى بلغت ما بلغت واشتهرت بين رجال العلم بمعارفها وسعة اطلاعها وفصاحتها . وأصبحت الأنظار متجهة إليها فى احترام وتقدير

لما حباها به الله من عقل وذكاء وفهم ، ولما تتحلى به من دين متين وخلق قويم وعلم غزير .

لقد كانت عائشة بنت معاذ فى الجزائر مثل أم ماطوس فى ليبيا ، وقد أقامت هاتان المرأتان الحجة على المرأة المسلمة وبرهنتا على أن الفتاة إذا شاءت فإنها تستطيع أن تبلغ أقصى ما يبلغه الرجال من المعرفة مع المحافظة على دينها وأخلاقها ، وصيانة تامة لأسرتها وبيتها ودأبها على القيام بالأعمال المطلوبة من المرأة فى البيت دون مزاحمة الرجل على أعماله ومحاولة الجلوس فى مكانه . وزحزحته عما خلقه الله بالفطرة لتأخذه هى بالدعوى والتكلف .

تجـــديت

تجديت كانت مدينة كبيرة قرب (جامعة) قال عنها شيخ الصحافة الجزائرية وأحد أركان نهضتها شيخنا أبو اليقظان إبراهيم رحمة الله : « كان لتجديت شهرة عالية فى العلم والعمران والنظام العجيب » . وقال بعد أسطر : « ويبدو لى بتسمية هذا البلد بتجديت أنهم بإنشائها يحاولون مقابلة عاصمة تاهرت التى يسمونها ـ بتاقدمت كما هو مرسوم بمحطة أطلال تاهرت، وكأنهم يهدفون بهذا إلى انعاش تاهرت القديمة ـ تاقدمت ـ باسم البلد الجديد ـ تجـديت ـ وهو مرمى بعيد ، وهـدف سـياسى له مغزى يرمى إلى تجديد تاهرت فى الجنوب » .

وقال المؤرخ الأديب الشاعر البارع أستاذنا باكلى عبد الرحمن بن عمر حفظه الله ورعاه ما يلى : « وناهيك بتاجديت وما بلغته من ازدهار وتألق أنوار ، وقد قصت علينا السيرة ما يدهش ويبهر » .

تحدث كثير من المؤرخين على هذه المدينة التى كانت فى يوم من الأيام عاصمة من عواصم العلم . ومركزاً من مراكز الثقافة الإسـلامية تشد إليهـا الرحال ، ويؤمها الطلاب من كل مـكان قال عنها أبو العباس الشماخى : « تجديت موضع معلوم بقبيلة أريغ ، وليست ببعيدة عنه اجتمع فيها من أهل الدعوة والعلماء والطلبة وأهل الصلاح ما لم يوجد فى غيرها ، وعد فيها مائة عالم لا يرد أحدهم مسألة إلى الآخر إلا من جهة الأدب » .

يبدو من كلام المؤرخين أن تاجديت تـكاد تـكون مدينة علمية بما فيها

من العلماء والطلاب والمعاهد . فقد كان الطلاب فيها يعدون بالمئات ، ويصنفون إلى أصناف حسب مواهبهم واتجاهاتهم ورغباتهم فى التخصص . تجد منهم من يستعمل التفكير ويعتمد عليه فيميل إلى كثرة الدراسة وسعة الاطلاع ويتناقش ويتنافس هذا الصنف فى عدد الكتب التى يدرسها كل واحد منهم ومقدار التحصيل الذى بلغ إليه بجده واجتهاده . وتجد منهم من يميل إلى الحفظ والاستظهار ويتنافس ويتناقش هذا الصنف فى عدد الكتب التى يحفظونها ويستظهرونها عن ظهر قلب ، وقد يبلغ عدد ما يحفظه كل منهم العشرات والمئات ، وقد ذكر بعض المؤرخين أعداداً كبيرة من أولئك الطلاب الذين كانوا يستظهرون عشرات الكتب بالإضافة إلى بعض أبيات ومقاطع الأدب .

كانت تاجديت خاصة بسكنى العلماء والطلاب تقريباً ، ولذلك فقد كان يبدو عليها الجمال والنظام والنظافة وكانت مساجدها ومدارسها عامرة باستمرار وكانت تشبه أن تكون مركزاً لمناطق واسعة آهلة بالسكان يرجعون إليها فى أوقات الصلوات وربما كانت أيضاً مركزاً تجارياً عامر الأسواق . وقد اعتاد سكان ضواحيها أن يأتوا إليها راكبين فيربطون دوابهم قريباً من المسجد فإذا استوت الصفوف وكبرت الجماعة تكبيرة الإحرام نفرت الدواب بسبب الدوى القوى الذى يحدثه تكبير العدد الضخم من المصلين ولعل أحسن ما يورد عنها هو الصورة التى وضعها لها المؤرخ الكبير أبو العباس الشماخى ، قال فى السير ص ٤٨٨ ما يلى : « ويحضر الصلاة ثلاثمائة فارس وإذا كبروا تكبيرة الإحرام نفرت المواشى ، وهى قريبة من آجلو فى الذى أعتقد . وهذا فى زمان واحد ، ودخلها عامل لصنهاجة ورأى كثرة الغزابة وكثرة الخلق وضيق الموضع فاعتقد أنهم يدنسون وجه الأرض بالخلاء والسماد ، فدار فيها

وحواليها ، فلم يظفر بشيء مما تكرهه عينه ، وتعافه نفسه، فقال وقد مد يده بسيفه : ما يخاف الناس إلا من هذا أو من الله. فهذا (يعنى السيف) ليس هذا موضعه وما منعهم من ذلك إلا خوف الله » .

هذه الصورة التى عرضها علينا المؤرخ الكبير أبو العباس الشماخى وهذه الملاحظة الدقيقة التى لاحظها العامل الصفاجى إنما تدل على شيء واحد هو أن سكان هذه المدينة رغم كثرتهم وضيق مدينتهم كانوا يتأدبون بأدب الإسلام ، من المحافظة على النظافة والطهارة ظاهراً وباطناً فى أنفسهم وفى موطنهم بحرص واهتمام .

وإنهم كانوا يحرصون على وسائل الصحة التى دعا الإسلام إليها وحرص على مراعاتها قبل أن يستيقظ الطب الحديث وقبل أن تستيقظ لها الحضارة الغربية فتأخذه منا لتبيعه لنا مصنعة فى مناشير وتقارير .

إنه لغريب حقاً أن تجول فى مدينة أو قرية غاصة بالسكان فى القرن الخامس الهجرى وتجول فى شوارعها وحواليها فلا تقع عينك على قذر تشمئز منه نفسك وينفر منه طبعك . وقد يتيسر فى ذلك الحين أن تجد شوارع قرية نظيفة ، أما أن تجد الشوارع جميعاً وأن تجد أيضاً ما حول القرية . من النظافة بحيث لا ترى فيه ما تقذى منه العين من بقايا الكناسة أو متناثر السماد الذى يخرجه أهل القرية ليرمى فى مزارع بعيدة تستفيد منه الحقول ولا يتأذى منه الناس . لقد كان هذا الموقف النظيف حقاً غريباً فى ذلك العصر وبوسائله ، ولسنا نحن فقط نراه غريباً وإنما سبقنا إلى ذلك ، ذلك المعاصر الدقيق الملاحظة المرهف الإحساس الذى يفرق بين من يسير بهدى الله ومن يسير بتلويحات السيوف وهمزات السياط .

من العلماء الذين عاشوا فى هذه المدينة العلامة أبو الربيع سليمان بن عبدالله ابن شاكر الفطناسى. قال شيخ الصحافة الجزائرية وأحد أركان نهضتها شيخنا أبو اليقظان رحمه الله ما يلى : « وكان من بين علمائها أبو الربيع سليمان ابن شاكر الفطناسى يحف حوله مائة عالم يشار إليهم بالبنان » .

ونقل الإمام أبو إسحاق أطفيش رحمه الله ورضى عنه عن أبى الربيع فى مقام الاحتجاج ما يلى : « ومثل هـذا ما ذكر سليمان بن عبد الله ابن شاكر الفطناسى المزاتى قال : أدركنا فى فطناسة وكانت قبيلة قليلة العدد من مزاتة ـ اثنى عشر مسجداً كلها عامرة بالآذان والجماعات والمجالس: أى مجالس العلم » .

عاش هذا العالم الكبير فى القرن الخامس الهجرى ونقلت عنه هذه الرواية سنة ٤٦٧ حسبما قاله الإمام أبو إسحاق رحمه الله .

كان أبو الربيع الفطناسى من أولئك العلماء الأشداء فى دين الله القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لا يعرفون المسايرة فى دين الله ، يقفون مع الحق حيث وقف، ويصدعون بآرائهم لا يبالون رضى الناس أم سخطوا، فإذا تبين لهم خطأ فى قولهم أو فى عملهم . لم يتمادوا فى الضلال ، وسارعوا إلى التوبة ، ورجعوا عن الخطأ إلى الصواب غير مبالين بالناس وأقوالهم .

قرر أبو الربيع أن يقوم بجولة يزور فيها أهل الدعوة ويتفقد أحوالهم . فخرج من بلده تاجديث يتنقل من بلد إلى بلد ، يطلع على الأحوال ، ويدرس الأوضاع ، ويفيد ويستفيد . فاستغرقت الرحلة منه وقتاً غير قصير ، ولما رجع إلى بلده تاجديث وجد أن أهل البلد قد عمدوا إلى أرض مشاع بين

أهل المدينة فغرسوها وعمروها واستغلوها بأنواع من النخيل والأشجار . فعاب عليهم ذلك وانتقد سلوكهم وتصرفهم فى المشاع كما يتصرفون فى أملاكهم الخاصة . ووقف على باب المسجد يصيح فيهم بصوته الداوى : « ما هذا الحدث الذى أحدثتموه » . وكان فى داخل المسجد العلامة أيوب ابن أبى عمران فأجابه من الداخل بأن عملهم ذلك جائز ، وأنه لا يصطدم بشريعة الله . وكان فى المسجد أيضاً العلامة أبو يعقوب يوسف بن يعقوب فاتجه إليه أبو الربيع وقال له: ما حفظت يا يوسف فى هذه المسألة عن شيخك وارسفلاس بن مهدى النفوسى : قال أبو يعقوب : إن اتفق أهل المشاع على غرسه جاز وتجرى عليه أحكام الملك كلها ، وإن عاد خراباً رجع إلى المشاع فاقتنع أبو الربيع بما ذهب إليه أولئك العلماء وأفتوا به ، وأقلع عن إنكاره » . واعتذر عن موقفه من إخوانه ، وشدة إنكاره عليهم .

هذا كان دأب أولئك السلف الصالحين ، يتمسك أحدهم بما يراه الحق ويتشدد فيه ويدعو إليه ويدور معه حيثما دار ولا يأنف أحدهم أو يتكبر عن الرجوع عن رأى أو قول كان يقول به إذا عرف أن الحق فى غيره .

فرحم الله أولئك الناس الذين كانوا يطلبون الحق . . والحق فقط أينما كان وكيفما كان . . ومهما كانت نتائج الطلب .

أراضى تقرت

أخذت هذا العنوان من المؤرخ الكبير الأستاذ أحمد توفيق المدنى فهو يقول فى تاريخه القيم (كتاب الجزائر) صفحة ١٨٢ ما يلى :

« أرض تقرت وهى الناحية الشرقية من أرض الجنوب العسكرية[1] وموقعها جنوب مقاطعة قسطينة ، تشمل عدة واحات بديعة ، تستمر إلى وادى أريغ ، ووادى سوف ، ووادى ايفارغار » .

ويقول بعد سطور فى صفحة ١٨٣ ما يلى: « من أشهر مدن هذه الدائرة تقرت ، ووادى سوف ، وورقلة » . وأنا حينما أطلق هذا الاسم فأنا أقصد تلك القطعة المباركة من الأرض الجزائرية العامرة التى تقع غرب الحدود التونسية من جهة بلاد قصطلية والجريد ونفطة والتى تشمل كثيراً من الواحات وبلاد الرمال والأراضى الشاسعة التى كانت وما تزال مرتعاً خصباً لتربية المواشى ولا شك أن المؤرخ الذى يتبع آثار الإباضية فى مراحل الزمن وفى بطون التاريخ سوف يتردد بين عينيه كثيراً ـ الأسماء الآتية: سوف وأريغ وواغلانت وآجلو وتقرت وبنّاني وما بين هذه المواطن وما جاورها .

أما وارجلان فقد كانت بمثابة العاصمة العلمية والدينية الإباضية فى الجزائر بعد انقراض تاهرت وهجرة سكانها إلى مختلف البلاد .

وسوف نتحدث عن وارجلان فى فصل خاص بها . أما هذا الفصل

---

(١) اتبع الأستاذ المدنى التقسيمات الإدارية فى عهد الاستعمار الفرنسى لأنه وضع الكتاب فى ذلك الحين .

فسوف نمر فيه مروراً سريعاً على ما سميناه أراضى تقرت وذكرنا أسماء بعض مدنه وواحاته وقراه التى كانت عامرة بالعلم والعلماء غاصة بالمدارس والمساجد ذات حركة نشيطة إلى عصور متأخرة، واليوم قد أنقرض الإباضية منها جميعاً كسكان أصليين ، وإن كان يوجد بها جماعات منظمة منهم يشتغلون فى مختلف ميادين الحياة الحرة ولا سيما التجارة . وأغلب هؤلاء إنما وفدوا إلى تلك البلاد إما من وادى ميزاب أو من وارجلان وقد يوجد هناك أفراد من جربة .

كان أكثر سكان الجزائر فى القرنين الثانى والثالث على المذهب الإباضى، يقول الأستاذ توفيق المدنى فى كتاب (الجزائر) صفحة ٢٠ مايلى:

« واعتنقت الأغلبية الكبرى منهم المذهب الإباضى الذى نشره بينهم من قبل دعاة الإمام أبى الخطاب من طرابلس الغرب » . ويقول بعد قليل : « وكان المذهب العام يومئذ للبربر فى كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضى » .

هذه الصورة التى يرسمها المؤرخ الجزائرى الكبير لانتشار الإباضية فى الجزائر إنما كانت فى القرنين الثانى والثالث ولكنها بعد ذلك تغيرت تغيراً ملحوظاً . فعندما تغلب العبيديون على الدولة الرستمية واستولوا على عاصمتها تاهرت ، عملوا ما وسعهم الجهد على مطاردة الإباضية فى كل مكان، ومحاربتهم محاربة مستمرة ، تساعدهم فى ذلك منازع العصبية المذهبية فى ذلك الحين . ولذلك فقد تناقص وجود الإباضية فى جهات الشمال ، وتركزوا فى جهات الجنوب الشرقى للجزائر ، الجنوب الذى عبرنا عنه فى عنوان هذا الفصل بأراضى تقرت وما جاورها .

يقول المؤرخ الكبير شيخنا باكلى عبد الرحمن ما يلى: « المواطن التى كانت آهلة بالإباضية فى القطر الجزائرى هى: الزاب ووادى أريغ وسوف وتجديت والرمال ووارجلان بما فيها سدراته ونواحيها التى ازدهرت فيها حضارة رائعة دلت الحفريات التى أجرتها الآنسة مارغريت فان برشايم العالمة التى انتدبتها الحكومة الفرنسية للبحث عن الآثار القديمة بالقطر الجزائرى على زخرفة ونقوش فى غاية من دقة الصنع مما يدل على أن الفن المعمارى قد بلغ فى تلك النواحى أوجاً بعيداً ، وأثبتت فى فصول نشرتها بالمجلة المصورة الفرنسية « الجيريا وأفريقيا الشمالية » عدد جويلية أكتوبر ١٩٥٣ م أنها كانت أرقى بكثير من الفن الأندلسى الذى كان مضرب المثل فى تلك العصور، وأطبقت شهرته الآفاق وقد خصص لآثارها فى متحف الآثار الجزائرى قاعة باسم (قاعة صدراته) والمدن المجاورة كـكريمة وجبل العباد وإفران وأنقوسة إلى مدن كثيرة انتهى عددها إلى نحو ثلاثمائة كما وجدته فى بعض التقاييد القديمة مما يدل على ما للأصحاب هناك من سطوة وعمران ، وقل مثل ذلك فى آجلو وتجديت وقد أسلفت عنها بعض القول والرمال وهو موضع لا يبعد كثيراً عن سوف كان كذلك موطناً من مواطن الأصحاب الآهلة. وجبال بنى مصعب ـ ميزاب بما فيها » . وعدد مدن ميزاب العامرة اليوم والقرى التى خربت وجلا عنها سكانها ثم قال : « ومدينة متليلى التى تبعد عن غارداية بنحو ثلاثين[1] كيلو متراً غرباً كان قسم من سكانها إباضيين، ويحكى عن مدينة الأغواط التى تبعد نحو مائتى كيلو متر عن عاصمة وادى ميزاب شمالا كانت آهلة بالإباضية أيضاً ، وبلدة المنيعة (قليعة) البعيدة

---

(١) لا يزال فى الأغواط وفى متليلى عائلات تنتمى إلى عائلات إباضية فى وادى ميزاب تربط بينهما علاقات نسب وهم حتى الآن يتزاورون ويتهادون .

عن وادى ميزاب بثلاثمائة كيلو متر غرباً كان الإباضيون يسكنونها » .

لا شك أن أستاذنا الكبير عندما قال هذا الكلام كان يقصد العصر الذى بعد الدولة الرستمية ، إنه يقصد تلك العصور التى انكمش فيها الإباضية وتجمع أكثرهم فى بلاد بعيدة عن فتنة الحكم والحكام ، واعتزلوا ميدان السياسة وقصروا اهتمامهم على الناحيتين الدينية والعلمية ، أو الروحية والعقلية. وقد عمرت بهم واحات الجزائر وكان العلماء يتنقلون فى قوافل كبيرة بينها ، يواصلون الدراسة فى رحلاتهم ويقيمون الصلاة فى مساجد متنقلة من الحصر تحمل على الإبل فإذا أقاموا بمكان نصبوها وإذا أرادوا الرحيل طووها وأخذوها معهم .

رحـــلة وزيارة

كانت تمر على أثناء قراءتى أخبار وأحداث عن وارجلان ، وعن رجال العلم والعمل فى وارجلان ، وعن وفود الطلبة والتجار إلى وارجلان ، وعن القوافل المسافرة إلى أفريقيا السوداء من وارجلان ، وعن الحركة التجارية الواسعة التى يقوم بها أبناء وارجلان عبر الصحراء إلى الجنوب .

فكنت أتصور وارجلان مدينة على شكل شبيه ببعض المدن الواقعة فى جنوب المغرب الإسلامى ، واحة من تلك الواحات التى تجمع الظل الظليل والماء العذب ، والخضرة اليانعة ، والحياة الآمنة المستقرة النشيطة ، فى حفرة من حفر الصحراء ، تكتنفها ألوية الرمال ، أو سلاسل الجبال وكانت هذه الصورة قد تضيق وقد تتسع وأنا أقارنها ببعض ما أعرف من مدن الصحراء .

وقد أتيح لى أن أقوم برحلة إلى الجزائر فى صيف سنة ١٩٦٥ مع بعض الأصدقاء من جبل نفوسة زرنا فيها كثيراً من أنحاء الجمهورية الجزائرية المكافحة وقضينا منها نحو عشرة أيام فى الواحات أنسانا فيها الأصدقاء الأعزاء أهلنا وبلادنا . وقد كنت أسجل خواطر سريعة أثناء الرحلة ثم نسقتها بعد ذلك فى فصول قد يتاح لى نشرها فى يوم من الأيام .

وأحب أن أنقل إلى القارىء الكريم هنا فصلا من تلك الفصول حتى أشركه فى خواطرى وأنا أنتقل من وادى ميزاب العامرة الذى اعتبر أهله لى أهلا وجباله وهضابه ووديانه لى وطناً إلى وارجلان العظيمة .

فى أصيل يوم ١٩٦٥/١٠/١١ انطلقنا من وادى ميزاب فى رفقة طيبة من المشائخ والطلبة والأصدقاء وقد تفضل شيخنا الفاضل مدير المدرسة الجابرية الشيخ محمد بيانو فرافقنا فى تلك الرحلة المباركة مع ما يسبب له ذلك من أتعاب ومشاق . كنت أحمل فى نفسى لهذه المدينة العظيمة ذكريات مجيدة فى خدمة الإسلام لمدة تقارب ألفاً ومائتى سنة ، كانت فى عشرة قرون منها عاصمة دين وعلم وخلق واقتصاد . وكانت طريقاً للدعوة الإسلامية إلى أفريقيا السوداء ، الدعوة التى يحملها المؤمنون الصادقون . بسمتهم وهديهم وخلقهم وعلمهم وعملهم ، دون أن تحرسهم قوات مسلحة أو تمهد لهم جيوش منظمة ، أو تسبقهم دعوات مبشرة ، أو تنفق عليهم أموال لا حساب لها ، ولعل النور الذى يومض اليوم فى أمكنة كثيرة من أفريقيا السوداء إنما كان أكثره قبسات حملها أفراد مؤمنون عن طريق وارجلان أو ما شابهها من المدن الصحراوية التى تعتبر ثغوراً أو منافذ إلى جهات الصحراء وما وراء الصحراء أما من الناحية العمرانية فقد كنت أرسم لها فى مخيلتى صورة لبلدة مجنية بالطوب فى منخفض من الأرض تكتنفها رمال أو هضاب . كالذى أعرفه من غدامس أو بعض الواحات الأخرى ، ولكن الحقيقة فاجأتنى بغير ذلك فلقد وضحت أمام عينى وأنا مقبل على وارجلان مدينة عظيمة فسيحة مستبحرة العمران ، متسعة الأرجاء تتلألأ فيها أنوار الكهرباء ويحيط بها إطار أخضر من النخل الباسق الذى بدأ يؤتى أكله فى ذلك الحين .

ومنذ تراءت لى مشارف وارجلان العظيمة خُيِّل إلى أننى رحلت عبر عصور طويلة من التاريخ ، وأننى أعيش هذه اللحظات فى وارجلان القديمة

وتلاشت من ذهنى صور الحاضر بما فيه من حركة وحياة ، فكنت كالمأخوذ لا أحس بمن معى من الرفاق ، ولا أحس بالزمن الذى أنا فيه ، ولا بالوضع الذى أنا فيه ، وطغت على المشاعر والأحاسيس بالماضى ، وغلب على الحنين إليه ، ذلك الماضى المجيد الذى عشت فيه فى كتب التاريخ بين رجال الدين والعلم والعمل أحضر بعض اجتماعاتهم ومناقشاتهم وحتى مآدبهم وأساليبهم الإحسان والمعروف .

استقبلنا الإخوان الأعزاء والأصدقاء الكرام من أهل وارجلان الأفاضل وهم يسلمون على ، ويحتفلون بى ويهيئون لى المقام الكريم فى صدر المجلس من المسجد العامر . وأقسم أننى ما كنت أحس بشىء مما حولى وحين جلست فى صدر المجلس وطلب إلىّ أن ألقى موعظة على الجمع المنتظر المتعطش إلى سماع صوت أبناء الجبل كنت أتمنى بكل قلبى أن يتولى ذلك عنى أى شخص آخر ، وأن أترك لأستسلم لخواطرى . وتكلمت ولكننى حتى الآن لا أذكر أننى تقدمت إلى الحديث دون أن أدرى ما أقول أو ما قلت مثل ما وقع لى فى ذلك المقام الكريم .

لقد كنت أتحدث دون أن أستطيع حصر فكرى فى موضوع . كما يتحدث تلميذ صغير فى تجربة أولى ، بين جمع رهيب من أساتذته الكبار ، ومشائخه الذين يحترمهم ويخشاهم . وما كنت — وأنا أتحدث — أحس بالحاضرين ، وإنما كان يخيل إلى أننى أتكلم فى جموع حافلة من عباقرة العلم طيلة أجيال وكان الوهم يصور لى بينها صوراً متناثرة من هنا وهناك لبعض أولئك الأفذاذ فى صورة الحقيقة فيضع بين عينى فى ذلك المجلس الوقور صورة لأبى يوسف بن أفلح أو لأبى يعقوب بن إبراهيم أو

لأبى صالح أو لأبى رحمة أو لغيرهم ممن ترك فى نفسى أثراً حين قرأت عنه ودراستى لحياته .

فكنت فى ذلك المجلس مهتاج العواطف ، مضطرب الفكر ، متباين الأحاسيس خشيان خجلان . وكانت شفتاى تنفرجان عن كلمات باهتة خافتة كأنها تخرج ميتة . ولست أدرى كيف بدأت الحديث ولا كيف أنهيته وقمنا إلى الصلاة ثم ذهبنا إلى تناول العشاء فى بيت من بيوت بعض الأصدقاء وبعد سهر خفيف آوى الإخوان إلى مضاجعهم .

أما أنا فقد حملت تلك الخواطر فى نفسى حملها ، فأرقت ولم يغمض لى جفن طول الليل وبعد صلاة الصبح ذهبنا مبكرين لزيارة جبل العباد وكنت أتحرك مع الإخوان والأصدقاء كما يتحرك إنسان مسلوب الإرادة لايقوى على شىء . وقصدنا جبل العباد . ورغم أن هذا الجبل لم يكن شاهق الارتفاع ، وأن ما تعودت صعوده من جبال نفوسة قد تفوقه ثلاث مرات أو أربع ؛ إلا أنه بدا لى شاهقاً شديد الارتفاع لا يمكن أن أبلغ إلى قمته وكان الإخوان من حولى يتنازون صاعدين بينما كنت أنا أتسلق الجبل فى مشقة وعسر ، وكأن على عاتقى أحمالا ثقالا من الماضى السحيق . وكانت نفسى مشحونة بالخواطر التى تتعاقب تحدثنى بأن الرجال العظام الذين كانوا يعيشون هنا كما يفوقونى روحياً يفوقوننى مادياً ، وأنه كما لا يحق لى أن أتطلع إلى مراتبهم السامقة فى ميادين العلم والعبادة والإحسان كذلك لا يحق لى أن أتطلع إلى هاتيك الأماكن السامقة التى اختاروها فى خلواتهم للاتصال بخالقهم فى مناجاتهم الخاشعة ، وخُيل إلىّ أننى بزيارتى لهذه الأماكن كأننى أنتهك حرمة مقدسة دون استئذان .

وحملت هذه الخواطر فى نفسى عواملها بالإضافة إلى أرق الليلة السابقة وإلى سهر متواصل لعدة ليال وأسفار متتابعة . فأصبت بنوبة قلبية سببها لى مرض الربو الذى يلازمنى زمناً نكاد نياط قلبى يتقطع وانقطع عنى التنفس، واشتد خفقان قلبى وتصبب منى العرق . وأصبحت فى حالة من التعب والإعياء لا أملك معها حركة ولا أستطيع كلمة فأحاط بى الإخوان يخففون عنى ويساعدوننى ويتلطفون بى حتى بلغت المكان الذى اختاره علماء وارجلان وسدراته الصالحون لإحياء الليل ومناجاة خالق الخلق عندما يسكن الناس ويغفو الكون ويسود السبات على الحياة فيكونون هم فقط هنالك يناجون خالق الخلق ، وقد رقت نفوسهم ، وتخلصت من شوائب الدنيا وعلاقاتها . استدار الإخوان فى المسجد[1] لتلاوة ما يتيسر من كتاب الله وكنت أتمنى لو تركونى خارج المسجد ولكن الإخوان أصروا أن أكون من بينهم وبقيت فى المسجد صامتاً إذ كنت فى حالة من التعب لا أستطيع معها القراءة . وعندما اختتموا أداروا الدعاء وجاء دورى ، فأحجمت عن الدعاء . أحجمت لأن الخواطر بدأت من جديد تهجس فى نفسى ؛ بأى حق أدعو فى هذا الحرم المقدس الذى دخلته دون أن أستأذن أصحابه ؟ وما يدرينى هل كان أولئك العمالقة العظام يرضون عن هؤلاء الأقزام وهم يقتحمون عليهم خلوتهم لمناجاة ربهم . إنّ أمكنة العبادة المشتركة والتى يحق لكل مسلم أن يدخلها وأن يعبد الله فيها متى شاء وكيف

---

(١) ليس فى المكان بناء وإنما أطلقت عليه كلمة المسجد لأنه الموضع الذى اختاره أولئك الصلحاء للعبادة وكانت الصلاة هى أعظم وأكثر ما يتقربون به إلى الله ولكن فرادى لأنها تطوع ويرى الزائر هناك ما لا يدخل تحت حصر من المحاريب على الأرض حيث يقف كل واحد منهم

obeikandl.com

شاء إنما هى المساجد المقامة للجميع . أما هذه الأماكن الخاصة التى يتكبدون مشاق وتعباً غير قليل ليكونوا فيها على خلوة إنما هى ملك خاص لهم وحرم مقدس لا يجوز انتهاكه ولمن شاء أن يقتدى بهم أن يتخذ لنفسه خلوة يأوى فيها إلى الله متى شاء .

قمنا بعد ذلك لنزور أطلال سدراته ، تلك المدينة العظيمة التى كانت لها شهرة فى العلم والدين لا تقل عن شهرة وارجلان . واشتهرت اليوم بأنها تحمل آثار حضارة إسلامية شبيهة بما تركه المسلمون فى الأندلس وقصدها علماء الآثار من أوروبا وقاموا فيها بأبحاث وحفريات لم تذهب سدى .

كان الإخوان ينظرون إليها كمدينة أثرية يعجبون لما يجدون فيها من دلائل الاهتمام بالبناء والزخرف ، أما أنا فكنت أنظر إليها من زاوية أخرى ، ونزلنا من جبل العباد وسرنا حتى بلغنا منبسطاً من الأرض ، تتعرج فيه ألوية من الرمال تغمر كل شىء ، وقالوا ها هنا كانت مدينة سدراته العظيمة . قلت فى نفسى نعم إنه أنسب مكان تقوم فيه مدينة إباضية تبلغ القمة فى العمل لله ، سرنا فيها غير قليل حتى بلغنا بعض ربوات صغيرة ظهرت عليها آثار بسيطة من البناء ، قالوا ومن هنا تبدأ الآثار العمرانية لهذه المدينة الخالدة ، قلت فى نفسى وهذه الآثار البسيطة من الاحتفال بالبناء قد تكون من آثار أولئك الأجداد العظام .

وسرنا قليلا فوجدنا آثاراً فيها نقوش واحتفال بالزخرف ، واهتمام بالعمران وطول الحياة والبقاء . وكان الإخوان فرحين بعثورهم على هذه الآثار الدالة على الحضارة والتقدم فى تلك العصور ، أما أنا فقد كانت تقوم فى نفسى معركة حامية من دلالة هذه الآثار . لأن تلك المعانى التى يفرح

لها الأصدقاء والتى توحى بها هذه الآثار هى أبعد ما يمكن أن أتصوره لأصحابنا فى تاريخهم المجيد الطويل ، وكنت أقول فى نفسى إن هذه الآثار التى يبدو عليها الاحتفال بالفن والاهتمام بالعمران ـ والعمل للبقاء والتشبث بالخلود فى الدنيا ـ لا تكون أبداً لأصحابنا . إنها بكل تأكيد ليست من عمل الإباضية . فهى إما أن تكون سبقتهم وإما أن تكون لغيرهم ممن كان يعيش بينهم فى عهود الرخاء والازدهار .

إن الإباضية فى تاريخهم الطويل فى المغرب الإسلامى لم يحفلوا بهذه النظرة الدنيوية التى ينظر إليها الناس ، ولم يأخذوا فى حسابهم أبداً أن يبنوا للبقاء ، أو يشيدوا للخلود ، ولا أن يزخرفوا للجمال ، ويشتغلوا للفن ، لأن كل ذلك فى نظرهم عبث يتنزه عنه المؤمنون . والتماس الخلود فى الدنيا يبتعد عنه من يعملون للآخرة ولقاء ربهم ينتظرون .

ولو كان فى الزخرفة والاحتفال بالمبانى الشاهقة ، وبذل الجهود المضنية لإقامتها خير ، ما عابها الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم على الأمم السابقة مثل قوله تعالى لعاد قوم هود عليه السلام : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. واذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾[1] فى أمثالها فكانما الإباضية فى المغرب الإسلامى كانوا يخشون أن ينالهم طرف من هذا الوعيد فكانوا أبعد الناس عن الاهتمام بمظاهر الحضارة الصناعية اللهم إلا فى جانب واحد من الحياة ذلك أنهم شيدوا فى كل مكان عاشوا فيه مساجد يخطئها العد فى جميع القرى والمدن التى عمروها ، وحرصوا على أن تكون تلك المساجد متينة البناء فسيحة تتسع للأعداد الوافرة كما حرصوا أن يخصصوا فى تلك المساجد أقساماً للنساء تحجب الرؤية ولا تمنع الصوت لتتمكن المؤمنات من حضور الصلوات والاستماع إلى الدروس وهن مصونات دون أن يؤذين

(١) سورة الشعراء : ١٢٨ — ١٣٠

أو يتأذين . كما حرصوا أن يجعلوا فى تلك المساجد جميع المرافق التى تيسر على المسلم وسائل الطهارة دون أن يتعرض لأذى الحر فى الصيف أو أذى البرد فى الشتاء وعملوا لتوفير المياه فيها إما بالآبار أو الصهاريج ولكنهم فى كل تلك المساجد التى أقاموها واحتفلوا لبنائها لم يهتموا بالزخرف أو النقش أو الفن لأن المؤمن عندما يأوى إلى بيت الله ينقطع عن حظوظ الدنيا جميعاً ليتصل بالله فهو حرى أن لا يشغل فكره بما على الجدران من فنون لأنه ليس فى زيارة لمتحف أو معرض وإنما هو فى مكان ينقطع فيه عن الدنيا ليصل حبال قلبه بالله .

رجعنا من سدراته إلى وارجلان وأنا لا أزال منهك القوى مضعضع الحواس ، فقصدنا محلا من محلات الإخوان . وأتيح لى فيه أن أستريح قليلا قبل وقت الغذاء . وغفوت غفوة قصيرة ردت لى بعض النشاط . ودعانا الإخوان إلى جنان من أجنتهم الفيحاء لتناول الغذاء . وحضر الغذاء جمع كبير من أكرم الإخوان ودارت أحاديث ممتعة فى العلم والتاريخ والأدب وعلوم الشريعة حرمت من أكثرها لأنى كنت مشغولا بتصفح الكتاب القيم « غصن البان فى تاريخ وارجلان . » الذى لا يزال مخطوطاً بكل أسف ولما لم يكن فى إمكانى استعارة الكتاب ، ولا نقله فى تلك الساعات القلائل كنت أؤشر على بعض الفصول التى أرى ضرورة قصوى فى الاطلاع عليها وطلبت من صديقنا الفاضل الأستاذ الشيخ أبى معقل عمر بن داوود ابن الحاج أحمد أن ينقلها وأن يرسلها إلىّ فى أسرع وقت ممكن وقد فعل جزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً .

وبعد صلاة العصر ودعنا الأصدقاء للسفر إلى تقرت وكنت أودع

الإخوان وأنا أحس أننى لم أزر وارجلان ولم أتعرف على أعلها الكرام الأماجد ولم أتعرف على حياتهم فى حاضرهم وأننى قد قصرت كل التقصير فى حقهم ، وكنت أعاهد نفسى على الرجوع[1] فى أقرب فرصة لأعرف وارجلان الحاضرة لأربط بين وارجلان التى عرفتها من خلال الكتب فى قرون من التاريخ الطويل وبين وارجلان المعاصرة التى تكافح فى جلد وصبر وثبات لتقيم مجدها الحاضر الزاهر على ماضيها الراسخ الثابت . ولأرى مقدار ما يعـــده شبابها المسلم المؤمن من وسائل لمحاربة ما تجره الحضارة المستوردة من بدع ومفاسد تحاول أن تجتث أصول الإيمان بالله والاعتماد عليه فى كل صغيرة وكبيرة من قلوب الشباب فى ديار الإسلام حتى يبقوا كالقطيع الذى لا راعى له فيسهل على الذئاب الفتك به وتقطيع أوصاله .

---

(١) وقد أتيح لى أن أعود إليها بعد إحدى عشرة سنة وذلك فى يوم الاثنين ٤ شوال سنة ١٣٩٦ هـ حيث تمكنت من قراءة الفصول التى كتبتها عن تاريخ وارجلان على الأخ العزيز الشيخ أبى معقل عمر بن داوود .

قيل عن أهل وارجلان

« وأهل ورقلة كلهم رجال خير وإيمان وصلاح ، يهاجرون كثيراً إلى جهات الشمال لأجل العمل ، فلا تـكاد تحصى على أحد منهم سيئة أو هنة » .

(كتاب الجزائر).

احمد توفيق المدنى

obeikandl.com

وارجلان

لقد كانت وارجلان فى عصور طويلة عاصمة للإباضية بكل الاعتبارات وقد كتب عنها جمع من المؤرخين الذين تحدثوا عن المغرب الإسلامى فى كل فترات تاريخه وتناولها كل واحد منهم من الزاوية التى ينظر منها وكانت من العظمة بحيث يجد كل ناظر صوراً جميلة للعرض ، وكل متحدث ميداناً فسيحاً للحديث ، ويسرنى — فى هذا الفصل — أن أدع المجال للمؤرخ الكبير الشيخ إبراهيم بن صالح أعزام رحمه الله صاحب كتاب « غصن البان فى تاريخ وارجلان » يضع لنا إطاراً نعرض فى داخله صوراً من تاريخ هذا البلد العظيم .

قال الشيخ أعزام :

« هذا الوطن من الأوطان القديمة ، يحق أن يكون له تاريخ عظيم مكتوب بحروف من نور على صفحات قلوب أبنائه . وكيف لا وهو من فاتح القرن الثانى وطن إسلامى علمى ، أثبت كثيراً من فحول العلماء وأعاظم الرجال . حتى أن الإنسان لا يمر بشارع أو طريق إلا ويسمع هذا قبر الشيخ فلان ، أو مسجد العلامة فلان ، أو محضرة العالم الفلانى إلى غير ذلك من الألقاب الشريفة . والشاهد على ذلك العيان ، وليس بعد العيان بيان.

ومن يرد تحقيق هذا الخبر يَصِلْ إلى بلادنا ويَنْظُرِ

ويقول بعد أسطر :

« وكان فيه من الخزائن المملوءة بالمجلدات[1] والأسفار الضخمة فى

---

(١) وجدت رسالة مبعثرة قديمة عن تاريخ سدراته ووارجلان اكتشفها باحث إفرنجى ولم يسعدنى الحظ بالحصول عليها حتى الآن . أعزام

الفنون المختلفة ، من تاريخ وفقه وحكم وتفسير وغير ذلك من العلوم العقلية . ولكن الفتن العمياء أعدمتها حرقاً وتمزيقاً ، ولم تبق منها بقية ، وحتى أن الإنسان مهما بحث أشدّ البحث لا يجد ولو أقل قليل من تلك الأسفار إلا بعض وريقات لا تفى بالمقصود » .

ويتحدث الأستاذ أعزام عن سدراته فيقول :

« بلاد سدراته منسوبة إلى شعب من شعوب البربر من بطون زناتة وهى بلاد كثيرة يسكنها معتنقو المذهب الإباضى قديماً ، ولم ينزحوا عنها إلا بعد ما خربها يحيى بن إسحاق الميورقى المعروف بابن غانية سنة ٦٢٤ عند ثورته على الأمير يعقوب بن المنصور أحد أمراء الموحدين كما كان بيان ذلك فى محله ، وبقيت البلاد إلى الآن خراباً » .

ويقول بعد أسطر :

« وبعد خراب البلاد تفرق الباقى من ساكنيها إلى وادى ملوية التى هى الحدود بين بلاد وارجلان والبلاد المراكشية ، والبعض سكن وادى ميزاب والبعض الآخر انضم إلى وارجلان » .

وعقد الأستاذ أعزام بعد هذا فصلا تحت عنوان : بلاد وارجلان عند المؤرخين . قال فيه :

« وارجلان ، واركلان ، واركلا ، ورقلة ، وارقلا ، وارقلان . هذه الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديماً وحديثاً إلا أن الاسم المعروف به الآن — وارجلان — وورقلة اسم لعاصمة بلاد كثيرة تحت نفوذها يسكنها الآن أخلاط من الإباضية والأعراب ورجال الحبشان ، والأصل فيها الأولون من قبائل زناتة ومزاتة وبني يفرن ومغراوة . كما سنذكر أقوال المؤرخين ،

وربما نذكر المؤرخ والكتاب وعدد الصفحة والجزء ليراجع من أراد التحقيق وعلى الله الاتكال » .

وقد نقل الأستاذ أعزام أقوال جمع من المؤرخين قدماء ومحدثين عن وارجلان وعن جغرافيتها وموقعها وسكانها . وعن حياتها وحياة أهلها وممن نقل عنه من القدماء : ابن خلدون ، والحموى ، والبكرى ، والعياشى . ونقل أيضاً عن السالمى والكعاك وبيرم التونسى .

والقارىء لكتاب غصن البان ولما نقله مؤلفه عن غيره من المؤرخين يفهم أن كلمة (وارجلان) إنما هى اسم لإقليم واسع ذى خصائص جغرافية وعمرانية وتاريخية ودينية . أما كلمة (وارقلة) فهو اسم لعاصمة هذا الإقليم ومما يساعد على هذا الفهم ما نقله الأستاذ أعزام عن الحموى :

« وارجلان كورة بين إفريقيا وبلاد الجريد ضاربة فى البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر » .

ونقل الأستاذ أعزام عن الشيخ السالمى قوله : « وارجلان وادٍ بأرض المغرب فيه عمارة ينزلها أصحابنا » .

ولقد نص الأستاذ أعزام على هذا المعنى فيما نقلته لك فى أول هذا الفصل حيث قال : « وارجلان ، واركلا ، ورقلة ، وارقلا ، وارقلان ، هذه الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديماً وحديثاً إلا أن الاسم المعروف به الآن (وارجلان) . وورقلة اسم لعاصمة بلاد كثيرة واقعة تحت نفوذها » .

ويبدو لى أن تلك البلاد الكثيرة والقرى العامرة والمدن المنتشرة والعيون الجارية والغابات الكثيفة الخصبة قد تضاءلت كلها ولم يبق منها إلا هذا العمران الذى تشتمل عليه مدينة وارقلة التى كانت عاصمة .

وبذلك أصبحت كلمتا وارجلان وورقلة اسمين لمدينة واحدة هى نقطة اتصال هامة بين الجزائر وتونس وليبيا والصحراء ، ولموقعها الجغرافى الهام كانت مركزاً تجارياً وعلمياً هاماً فى مدى اثنى عشر قرناً وما تزال .

ولما كان هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ يتتبع الزمن عصراً عصراً ليسجل الأحداث حسب وقوعها فإنه لا يفوتنى أن أضع صوراً للقارىء الكريم عن هذا الوطن العظيم الذى كان مركز إشعاع ومقصد رجال العلم والدين من جهة ، وهدماً يضربه المنحرفون بغير هوادة من جهة أخرى . ومرتاداً خصباً يتحلب عليه ريق المغامرين من جهة ثالثة .

وأحسبنى أستطيع نظراً للأحداث الكبرى التى وقعت فى هذه البلاد أن أقسم تاريخه إلى عهود يمتاز كل عهد منها بخصائص واتجاهات وأحداث ينفصل بها عن العهود الأخرى وإن شاركها فى بعض المظاهر إذ لا شك أن تلك العهود ينبنى بعضها على بعض ويأخذ منها . فمن المستحيل أن تكون فترة تاريخية لحياة أمة ما منفصلة كل الانفصال عما سبقها وعما لحقها .

ولقد سبقنى الأستاذ أعزام — وله الفضل — إلى هذا التقسيم فله الشكر

ينقسم تاريخ وارجلان إلى أربعة عهود هى كما يلى :

١ — العهد الأول من الفتح الإسلامى إلى سنة ٤٥٠ تقريباً

٢ — « الثانى « ٤٥٠ « « ٦٢٤ «

٣ — « الثالث « ٦٢٤ « « ١٠٤٠ «

٤ — « الرابع « ١٠٤٠ « « ١٢٨٦ «

العهد الأول

العهد الأول من تاريخ وارجلان يمتد قرابة أربعة قرون إذ يبتدىء من الفتح الإسلامى ويستمر إلى منتصف القرن الخامس الهجرى .

فقد اعتنق أهالى وارجلان الإسلام عندما حمل الفاتحون الأولون مشعل الهداية إلى المغرب الأوسط فى أواسط خير القرون ، ويبدو أن سكان هذه البلاد ثبتوا على الإسلام منذ اعتناقهم له ، ولم تجرفهم عوامل الردة التى وقعت فى كثير من بلاد المغرب بأقسامه ، لا سيما منطقة أوراس . وفى عهد الدولة الأموية التى لم يستقر فيها الوضع فى الجزائر بسبب حروب الردة أولا ثم الثورات المتعاقبة إما نزاعاً على الحكم وإما سخطاً من الظلم ـ فى هذه الفترة كانت وارجلان هادئة مطمئنة . وكان قد انتشر فيها المذهب الإباضى كما انتشر فى بقية المغرب الإسلامى مع أوائل القرن الثانى . فاشتغل الناس بالجانب العلمى كما اشتغلوا بالدعوة إلى إقامة كتاب الله والمحافظة على أحكامه .

وتكونت من بعد البعثة العلمية فذهب عاصم السدراتى إلى البصرة ودرس ورجع مع حملة العلم . وعندما بايع الناس أبا الخطاب بالإمامة فى طرابلس كان عاصم من أول من بايع ، وكان يأمل أن تتكون إمامة تحكم بكتاب الله وتسير على نهج الخلفاء الراشدين وبعد أن استقرت قدم أبى الخطاب ، وهدأت الأحوال ، ودلت البوادر الأولى أن هذا الإمام الجديد حرى أن يعود بالأمة والدولة إلى نهجها فى أيام العدول من أئمة الإسلام، فاطمأن عاصم إلى النتائج وسافر إلى الجنوب الشرقى للجزائر حيث كانت له شخصية محترمة ، وكلمة نافذة مسموعة ، وكان الناس يستمعون

إليه ويتتبعونه . وكان يعمل على أن تكون تلك البلاد تابعة للإمامة فى ليبيا فاستجاب له الناس وساروا وراءه غير أن إمامة أبى الخطاب لم تطل فقد قتل بعد سنتين فى معركة حاسمة وبايع الناس أبا حاتم الملزوزى فالتزم عاصم ببيعته ولم يدعُ لنفسه ولم يقل إنه من حملة العلم وإنه أقوى شخصية بعد أبى الخطاب فهو أولى بالإمامة . وإنما كان أطوع قائد تقدم لمعاضدة أبى حاتم وأقواه ، وعندما اضطر أبو حاتم إلى انتزاع القيروان من الدولة العباسية وافاه عاصم على رأس جيش من أبطال سدراته ووارجلان[1] وكان حكام القيروان يعرفون ما يتحلى به عاصم من الشجاعة والقوة وحسن التدبير فعملوا على قتله بحيلة ذكرتها كتب التاريخ ، ومات البطل العظيم قبل نتائج المعركة وقد أسفرت على انتصار أبى حاتم، ورجع أولئك الأبطال الذين جاءوا تحت قيادة عاصم منتصرين ، ولكن دون أن يرجع معهم عاصم .

ولم تطل إمامة أبى حاتم فقد تمكن العباسيون من التغلب عليه وقتله . بعد هذه الأحداث سلك الإباضية فى وارجلان نفس المسلك الذى سلكه الإباضية من أهل جربة . فقد انعزلوا عن الحركات السياسية والثورات العسكرية . لا ينضمون إلى دولة ، ولا يناصرون أحد المتخاصمين ولا يساعدون الثوار ، ولا الدول القائمة . ولكنهم كانوا يلتزمون الإسلام فى سيرتهم ، وينفذون أحكامه على أفرادهم ومجتمعهم ، وعندما تكونت الدولة الرستمية فى تاهرت ، وامتد سلطانها على أغلب بلاد الجزائر وتونس وليبيا . دخلت وارجلان فى هدوء تحت جناح هذه الدولة الجديدة .

---

(١) ذكرت وارجلان هنا استنتاجا فقط نلمست على يقين من أن أهل وارجلان بمخططها الواسع قد اشتركوا فى جيش أبى حاتم .

ولما كانت الدولة الرستمية تسير على نهج الخلافة الرشيدة ، وتعمل على تطبيق أحكام الإسلام ، وتتقيد بها ، فقد كانت البلاد التابعة لها تتمتع بكل أنواع الحرية والعدالة والاستقرار التى كفلها الإسلام . وكان نفوذ الدولة عليها نفوذاً اسمياً لا يتعدى إقامة حدود الله على من يخرج عنه . والفصل بكتاب الله فيما ينجم من خلافات بين الناس ، أما فى غير ذلك فقد كانت تترك لأهل البلاد أن يعيشوا كما يحلو لهم فهم أحرار فى معاملاتهم وتجاراتهم وجميع أعمالهم ، مادامت لا تجرى على أسلوب من الأساليب المحرمة أو فى نوع من الأنواع المحرمة ، وكان الناس حينئذ أشد إيماناً من أن يخالفوا أحكام الإسلام فى معاملة أو تجارة مخالفة صريحة واضحة .

وكانت الدولة الرستمية لا تجبر أهل وارجلان ولا غيرهم على التجنيد الإجبارى . فهى لم تتخذ جنداً مقيما تدفع له المرتبات والأجور ليبقى تحت السلاح باستمرار استعداداً لهجوم أو دفاع . ولا تعتمد على ذلك الجند الذى يحارب من أجل المال ووسائل العيش ، وإنما كانت تعتمد على التطوع . على أولئك الذين يحملهم إيمانهم على محاربة المعتدين والدفاع عن حوزة الإمامة رغبة فيما عند الله : لا أملا فى الحصول على غنيمة ، أو سعياً وراء نيل مرتب من الدولة .

إن الدولة الرستمية لم تكن تدفع مرتبات للجند كما أنها كانت لا تجيز لنفسها ولا لمن يعمل تحت حكمها أن يستحل شيئاً من أموال المسلمين ولو كانوا بغاة ظالمين معتدين .

عاشت وارجلان فى هدوء وسلام مدة الدولة الرستمية وكل ما يربطها

بهذه الدولة من علاقة إنما هو اعترافها بالتبعية لها وإقامة الحدود وإصدار الأحكام باسمها والرجوع فى مهام الأمور إليها .

وتلك هى علاقة الدولة الرستمية بجميع البلاد التابعة لها فلم تكن تبغى غير ذلك ولا يهمها إلا أن يعيش المسلمون أحراراً يتمتعون بكل ما يكفله لهم دينهم الذى ارتضاه الله لهم . وقد كانت الدولة الرستمية لا تفرض ضرائب ولا تصادر أموالا ، ولا تأخذ غرامات من أحد ، وإنما كانت تجمع أموال الزكاة على النهج الإسلامى الذى سار عليه الخلفاء الراشدون ، والمهتدون بهم من بعدهم . وقد كانت لا تأخذ من وارجلان شيئاً وإنما كان عمال الدولة من خيرة العلماء يجمعون الزكاة من أغنياء البلاد ويردونها فى فقرائهم حسبما هو معروف فى النظم الإسلامية . ولهذه الحرية الكاملة التى كانت تتمتع بها وارجلان وبقية البلاد التابعة للدولة الرستمية لم يدرك بعض المؤرخين العلاقة ، وأعتقد أن حكمها لم يمتد إلى تلك النواحى لأنه لم يجد له الصدى الذى يجده غالباً لغيرها من الدول .

ويسرنى أن أختتم هذا الفصل بهذه الصورة الرائعة التى صور بها الأستاذ أعزام هذه الفترة من تاريخ وارجلان الحافل قال رحمه الله :

« إن هذه البلاد فى سنة ١٥١ هـ[1] (٨٣٠م) إلى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٣٩م) عامرة بالإباضية كما قدمنا ولا اختلاط معهم من الأجناس[2] الأخرى وشئونهم بأيديهم وكل واحد رئيس على عائلته ومنكب على أشغاله ومهماته والرئاسة

---

(١) لا يقصد المؤلف التحديد الدقيق بهذه السنة .

(٢) يقصد المؤلف المذاهب .

العليا بيد حلقة العزابة[1] بالجامع الكبير فى كل مدينة وإن نزلت بهم مسألة عويصة اجتمع العلماء من جميع القرى فيفصلونها على مقتضى الكتاب والسنة وآثار السلف ولا يؤدون على أملاكهم وديارهم وأنفسهم أية ضريبة لدولة إلا الزكاة فقد كان يؤدى كل واحد واجبه فيما بينه وبين الله تعالى لمستحقه بغير رياء أو سمعة أو محاباة » .

هذه الصورة التى وضعها الأستاذ أعزام لوارجلان خلال ثلاثة قرون ونصف هى نفس الصورة التى كانت عليها جربة فى تلك الفترة أيضاً . وقد اعتصمت وارجلان بالانعزال عن الفتن القائمة قبل تكوين الدولة الرستمية ، ثم دخلت طائعة تحت نظام هذه الدولة فلما انقضت أيامها عادت وارجلان إلى نوع حياتها التى عاشتها ما بين الفتح وتكون الدولة الرستمية . وكل ما هنالك من فرق بين حياة وارجلان قبل تكون الدولة الرستمية وبعدها إلى نهاية العهد الأول من تاريخها — وبين حياتها تحت نظام تلك الدولة العادلة . أن الأمور فى زمن الدولة كانت تجرى باسم الدولة ، أما قبل ذلك وبعده فقد كانت الأمور تجرى على أيدى رجال العلم والدين والصلاح إلى أن تكوّن نظام العزابة على أساسه العرفى أولا ثم على نظامة المقنن المسجل فأصبح بديلا عن الدولة .

ومنذ تأسيس نظام العزابة المقنن فى عهد أبى عبد الله محمد بن بكر أصبح

---

(١) نظام العزابة فى أول هذه الفقرة غير معروف لا عرفا ولا تنظيما ويقصد الأستاذ أعزام أن أمور المسلمين كانت بأيدى القائمين على شئون المسجد من العلماء ولا شك أن القائمين على أمور المساجد حينئذ من الأئمة والمؤذنين والمشرفين على الأوقاف والقائمين بحركة التعليم ودروس الوعظ والإرشاد . ومن هؤلاء جميعا تكون فيما بعد مجلس للعزابة حسب التنظيم الموجود إلى الآن والذى سجله الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر سنة ٤٠٨ على الأرجح بعدما اتفق مع أبى زكريا فصيل على خطوطه العريضة قبل ذلك فى جربة .

سيرة من سير أهل وارجلان يعملون به ويحافظون عليه إلى اليوم وإلى ماشاء الله رغم اختلاف الأحداث وتغير الأزمان .

قد يلاحظ القارىء الكريم أن هذا العهد لم يكن فى جميع فتراته متشابهاً كل التشابه ، ولم تغب عنى هذه الملاحظة وقد خطر لى أن أقسمه إلى ثلاث فترات .

تبتدىء الفترة الأولى منها من الفتح الإسلامى فى منتصف القرن الأول أو بعده بقليل وتمتد إلى منتصف القرن الثانى عند تكون الدولة الرستمية . وتبتدىء الفترة الثانية من تكوّن الدولة الرستمية إلى نهاية القرن الثالث عند انقراض الدولة الرستمية. وتبتدىء الفترة الثالثة من انقراض الدولة الرستمية فى أواخر القرن الثالث وتمتد إلى نهاية هذا العهد ، وهذه الفترات الثلاث كانت كل منها تتميز بأحداث تاريخية هامة أو بأنماط من السلوك خاصة ، إلا أن حياة الشعب الوارجلانى فى هذا العهد كانت تسير على وتيرة متقاربة ليس بينها كبير اختلاف . فقد كان يعيش فى جميعها عيشة هدوء وأمن واستقرار وتطبيق لأحكام الإسلام تطبيقاً حقيقياً . وشعور بالحرية الكاملة دون أن ينالها ظلم أو تعسف أو إرهاق .

العهـــد الثـانى

يمتد هذا العهد قرابة قرنين من الزمان من النصف الثانى للقرن الخامس إلى منتصف القرن السابع تقريباً أى من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٦٢٤ ، أى منذ دخول العرب من بنى هلال وبنى سليم إلى المنطقة حتى تغلب ابن غانية على وارجلان وتخريبه لمدينة سدراتة .

ويمتـاز هذا العهد عن غيره من العهود بكثرة القلاقل والفتن والحروب والغارات وذلك أنه بالإضافة إلى عدم استقرار دولة متغلبة تتحـكم فى البلاد بقانون عادل أو جائر كان هنالك ناس يحترفون الغارة والنهب والسلب .

ويبدو أن هذه الحالة جاءت مع أفواج الأعراب من بنى هلال وبنى سليم الذين كانوا لا يزالون يعيشون على ما اعتاده أسلافهم البداة من الغارة على الغير واستخلاص ما تصل إليه أيديهم من أموال الناس على طريق الغنيمة ، سواء كانت تلك الأموال عروضاً محفوظة ، أو محاصيل زراعة مجموعة ، أو سوائم ترود الـكلأ فى المراعى . ولم تـكن هذه الحالة المؤسفة مقصورة على القبائل الوافدة من نجوع بنى هلال وبنى سليم وإنما تضاف إلى هذه الحياة المنحرفة بعض القبائل البادية الأخرى التى تعيش فى البلاد من قبل والتى شجعها مسلك بنى هلال وبنى سليم أن تسلك نفس المسلك للحصول على المال إما متفقة ومنسجمة معها أو معارضة ومناقضة لها ، أو منفردة . وتـكاثرت تلك الأحياء الضاربة فى الوديان والبوادى والتى كانت تقوم بأعمال العدوان للسلب والغنيمة على أحد الأسلوبين الآتيين :

فقد تكون جموعاً من المحاربين الأشداء تحت رئاسة بعض شيوخ القبائل وفرسانهم ثم يهجمون على حين غرة — على بعض المدن أو القرى أو الأحياء الأخرى ، يقتلون من يعترض سبيلهم ويغنمون ما تصل إليه أيديهم .

ثم يركبون جيادهم ويعودون إلى أحيائهم ، وهم يفخرون بما أظهروا من صبر وثبات فى القتال ، وما قتلوا من رجال وما غنموا من متاع وسلبوا من أموال .

وقد يعمدون مجموعات من أولئك المحاربين فيعترضون الطرق ، ويستولون على القوافل التى تنقل البضائع من مكان إلى مكان . فيأخذون ما عندها لأنفسهم غنيمة باردة .

ولا شك أن هذه الأحياء البادية التى تعيش هذه العيشة إنما تسعى إلى كسب المال من جهة وإلى التغنى بالبطولة والشجاعة من جهة أخرى ، وليس لهم أى مقصد فى الاستقرار أو البقاء فى الأماكن التى يغزونها ويتغلبون عليها . ولذلك فحروبهم كانت عبارة عن هجمات خاطفة على من يجدون عنده غرة أو يتوقعون منه غفلة فإن حصلوا على شىء فذلك مطلبهم وإلا فروا هاربين ليعيدوا الكرة على نفس المكان أو على غيره فى فرصة تكون أكثر مواتاة لهم .

أما الأسلوب الثانى فقد كانت بعض تلك القبائل تلتحق بعض الأمراء أو بعض الثائرين أو بعض المغامرين من طلاب الحكم فتدخل تحت لوائه وتحارب مع صفوفه لا محبة فى نصره ولا اعتناقاً لمبدئه وإنما استعانة به على

تحقيق نزعة القتال الجامحة فى نفوسهم والتغنى بالبطولة وعلى الحصول على الأموال من طريق الغنائم ، الطريق الذى لا يعرفون غيره ولا يفكرون فى سواه. ولذلك فقد كان من السهل على تلك القبائل أن تنقلب على من كانت تناصره وأن تعمل تحت قيادة من كانت تحاربه .

وقد كانت وارجلان فى هذا العهد — وهى محاطة بعدد غير قليل من هذه القبائل — غير خاضعة لدولة ولا تابعة لإمارة ، وإنما كان مجلس العزابة يدير شئونها وينظم أمورها ، ويفصل فى مشاكلها ، ويتولى قيادة الدفاع عنها ، بقوتها الشعبية لا بقوة دولة ، وبذلك كانت عرضة للهجمات والغارات أكثر من جميع البلدان التى تجاورها ، وقد يكون من الأسباب التى وجهت إليها أنظار المغيرين — ربما أكثر من غيرها — أنها كانت تتمتع بمركز اقتصادى ممتاز ، وأن أهلها كانوا على نصيب وافر من الثروة والغنى بسبب الأخلاق التى كانوا يتحلون بها من جد ونشاط ومواصلة للعمل سواء كان هذا العمل فى خدمة الأرض والاشتغال بالزراعة أو كان بالضرب فى الأرض والسفر إلى بلاد السودان للاشتغال بالتجارة .

وقد استطاع العزابة فى هذه الفترة أن يحتفظوا بالسلطة كاملة وأن يستمسكوا بقيادة الأمة ، وأن يحافظوا على النهج القويم الذى كانوا يسيرون عليه من قبل وأن يدفعوا عنهم عدوان المعتدين فى تلك الغارات الخاطفة دون أن يتورطوا فى حروب طويلة مع الدول القائمة أو الثائرين عليها فلم ينحازوا إلى أىٍّ من الجانبين ، وكانوا يتركون بلادهم شبه مفتوحة للحركات الدولية فلا يعترضون سبيلها فى تحركها ولا يخضعون لها وإنما يتركونها تمر كما تمر العاصفة يتطامنون لها حتى إذا تجاوزتهم وثنوا

واستطاعوا أن تبقى بلادهم فى تلك الظروف الحالكة المتقلبة فى أمن وراحة وهناء .

وكما يمتاز هذا العهد من تاريخ وارجلان بالحالة المضطربة فيما جاورها وبكثرة الفتن والغارات والحروب كان هذا العهد من تاريخها يمتاز بمزايا أخرى بعيدة كل البعد عن تلك المعانى مباينة كل المباينة لذلك الاتجاه . وذلك أن وارجلان فى كامل ذلك العهد كانت أهم مركز علمى للإباضية وأحصن ملجأ يلجأ إليه العلماء والطلاب والزهاد وقد تداول فيه الرئاسة العلمية والدينية عدد من أعلام الإسلام نذكر منهم أبا صالح الياجرانى فى أول العهد وفيلسوف الإسلام أبا يعقوب يوسف بن إبراهيم فى آخره . وبين العالمين العظيمين وفى عصريهما حلقات مترابطة من فطاحل العلماء وأعداد لا نستطيع حصرها من طلاب العلم فى المدن والقرى وحتى فى الأحياء البادية[1] . يقول الأستاذ أعزام عن هذا العهد فى كتابه القيم : غصن البان . ما يلى :

« وفى بحر هاته الأعوام اختلطت البلاد ودخلت العرب الوطن كما سيأتى بيانه ، وفى أثناء ذلك وقع الهجوم والهرج والفتن الكثيرة فى المغرب. ولكنهم بقوا على حالتهم الأولى من الهدوء والسكون » .

ويقصد الأستاذ أعزام بكلمة العرب هنا تلك الجموع الهائلة من بنى هلال

---

(١) ذكر المؤرخون أن أبا صالح خرج من وارجلان إلى بعض الأحياء الضاربة فى البادية وكان له معهم إبل . فوجد هنالك شيخا من كبار العلماء عليه حلقة من الطلبة يتجاوز عددها الأربعمائة . وعند رجوعه شيعه الشيخ وتلاميذه فسأل أحدهم الآخر قبل الوداع قائلا : أخبرنى ما أعظم شىء ينال به خير الدنيا ؟ أهى التجارة أم الزراعة أم الصناعة فقال أفضل ما ينال به ذلك دعاء الصالحين لا سيما إذا سبقه إغاثة ملهوف أو سداد حاجة مضطر ؟

وبنى سليم الذين وفدوا على المغرب بمكيدة من الدولة الفاطمية فى القاهرة فانتشروا فى أرجاء ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . يقتلون ويخربون ويغنمون ، وقد نالت وارجلان نصيبها منهم وممن سار بسيرتهم وأصابتها فتن وحروب وتخريب . وإن كانت فى أغلب الأوقات تقف للمعتدين بالمرصاد ترد عليهم ما يقومون به عليها من صولات وجولات . ما جعلها تعيش طيلة هذا العهد على استعداد دائم لترد عدوان المعتدين .

وقد صور المؤرخ الكبير ابن خلدون حركة دخول العرب من بنى هلال وبنى سليم وماقاموا به من فتن وحروب وما أدخلوه على البلاد من الروع والفزع ، وما ارتكبوه من تخريب — فى عدة مواضع من كتابه القيم نأخذ منه هذه الصورة لنعرضها على القارىء الكريم كمثل لما قام به أولئك الناس .

قال ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه القيم ص ٤٣ ما يلى :

« وعاجوا على ما هنالك من الأمصار مثله طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعاً صفصفاً أقفر من بلاد الجن ، وأوحش من جوف العير ، وغوروا المياه ، واحتطبوا الشجر ، وأظهروا فى الأرض الفساد » .

وأحسب أن هذه الصورة الصغيرة التى نقلناها للقارىء الكريم عن المؤرخ الكبير كافية لمعرفة ماأصاب البلاد فى المغرب الإسلامى من الأضرار بما كان يقوم به أولئك البداة الجفاة الذين لم يلامس الإسلام قلوبهم إلا قليلا ، ولم يلتزموا أحكامه فى إخوانهم المسلمين لا كثيراً ولا قليلا .

العهد الثالث

يمتد هذا العهد ما يزيد عن أربعة قرون أى من سنة ٦٢٤ عندما خرب الميورقى سدراتة إلى سنة ١٠٤٠ عندما استدعى بنو سيسين أسرة ابن علاهم لتولى الحكم فى وارجلان .

لقد ذكرت للقارىء الكريم أن أهل وارجلان الكرام كانوا فى العهد السابق عرضة للغارات التى تقوم بها بعض القبائل التى تبنى حياتها على السلب والنهب . ولكن سنة ٦٢٤ جاءت بأشد ما يمكن أن يقع فقد مر المغامر الجرىء يحيى بن إسحاق الميورقى على هذه المنطقة كما يمر الأعصار ، فقتل الأنفس بدون حساب ، وخرب المدن ، وغوّر المياه وأحرق الغابات . وقد انصبت نقمته على سدراتة « فهدم سورها ، وتركها قاعاً صفصفاً ، وغادرها كأن لم تغن بالأمس »[1] .

كان ابن غانية ثائراً على الموحدين يريد أن يقوض دولتهم وأن يبنى لنفسه على أنقاضها مُلكاً . فكان يمر بالبلدان بشراذم من المغامرين فيقتلون ويخربون . ثم تمر من بعدهم جيوش الموحدين على تلك المدن والقرى المنكوبة فيعاقبونها هم الآخرون على استسلامها للميورقى ودفعها له ما فرض من ضرائب . وتوالت الهجمات من عدة أطراف فكانت لها نتائج وخيمة على تلك المنطقة .

ونظراً لتضافر القلاقل وكثرة الفتن وتعاقب طلاب الحكم على البلاد

---

(١) ما بين قوسين عبارة أبى العباس .

وإرهاقهم بالناس شتى أنواع الظلم وكثرة غارات البداة ، ومن فى حكمهم فإن هذا العهد يعتبر أسوأ عهد تاريخى مر على وارجلان فى عهودها الإسلامية .

وإذا كانت الغارات وقطع الطريق والتعرض للسابلة فى العهد السابق قد قيدت نشاطات رجال العلم والعمل ، وعاقت طلاب العلم عن الانتقال بين المدارس والمفاضلة بين الشيوخ والمدرسين ، والالتحاق بأكثرهم فائدة، وأوسعهم دائرة ، وأصبرهم على العطاء . فإن حالات الفتنة واستمرار الحرب والاضطراب والقلق قد أثرت على الناس فاشتغلوا بوسائل الدفاع ، وكرسوا أنفسهم لرد سيول المهاجمين الذين لا ينقطعون . وقرّ كل واحد منهم فى موطنه يتوقع كل يوم نزول المصائب ، ويحتال لدفعها ويعد الوسائل لردها أو التخفيف منها ، فوقع شبه تهاون فى الجانب العلمى بانصراف العلماء والمتعلمين إلى مضاعفة الاشتغال فى الميدان الاقتصادى حتى تستطيع البلاد مواجهة ما تأتى به الأيام من المطالبات . كما أنهم كانوا أيضاً يعدون وسائل الدفاع ويتدربون عليها لرد الغارات التى يقوم بها طلاب المال من رؤساء القبائل .

وفى هذه الأثناء احتاجت البلاد إلى رجال أشداء تسند إليهم إدارة البلاد عسكرياً ليتولوا حمايتها والدفاع عنها، ولما كان من تتوفر فيه شروط القيادة السياسية والعسكرية قد لا تتوفر فيه شروط الزعامة الدينية التى يقوم بها العزابة . ومن تتوفر فيه شروط العزابة قد لا تتوفر فيه شروط الزعامة للقيادة السياسية والدفاع ، فقد أسند الدفاع إلى رجال من غير العزابة . وقد سار أولئك الحكام المختارون فى مبدأ الأمر سيرة حسنة، خاضعين للاختيار والشورى . عاملين بنصائح العزابة وتوجيهاتهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن

استغلوا تلك المناصب فأعطوا لأنفسهم حق الحكم والتحكم حسبما يعرف عند غيرهم من المجتمعات . وحرصوا على أن يبقى الأمر فى أيديهم ، ثم عملوا على أن يبقى الحكم وراثياً فى أسرهم .

وعندما بلغ بهم الانحراف إلى هذا الاتجاه بدأت المشاكل الداخلية فقد كانت أسر أخرى ترى أن تولىّ الحكم شرف وحق ، وهى تريد أن تحصل على هذا الشرف وتنال هذا الحق . وكانت أسر أخرى ترى أن الحكم مغنم ووسيلة للاستغلال وهى تريد أن تجنى لنفسها بعض المكاسب وتستغل ما استغله الآخرون .

وكان هناك مجموعات من الناس ينتقدون فى الأسر الحاكمة هذا الانحراف الذى يميل إلى الاستبداد والاستغلال والاستعلاء ، ويحاولون أن يطيحوا بأولئك الحكام حتى يقوم الأمر على نزاهة ونظافة واستقامة . وبدأ التطاحن الداخلى فى نفس وارجلان يفعل فعله . فانقسم أهلها وكان لكل داعية أتباع ، ولكل قبيلة أشياع ، واستطاع بنو سيسين أن ينتزعوا الحكم من بنى وكين ، ولم يطل ببنى سيسين الأمر ، فقد وقع بين أفراد العائلة نفسها نزاع وخصام نتجت عنه فتن طويلة ذهبت فيها أموال وأرواح ، وخشى أصحاب الحكم من بنى سيسين أن يتغلب عليهم منافسوهم فينتزعون منهم مقاليد السلطة فارتكبوا الخطأ الذى يرتكبه كل ضعيف يتمسك بالحكم رغماً عن أهل وطنه . فالتجأوا إلى خارج وارجلان ، وذهب منهم وفد إلى مراكش يدعو إليهم من يسندهم فى موقفهم ويشدهم على كراسيهم فجاءتهم هذه المساعدة ممن أخذ الحكم منهم ومن منافسيهم .

وفى سنة ١٠٤٠ قدم مولاى عبد الغفار بن مولاى محمد بن مولاى

علاهم بدعوة من بنى سيسين ليتولى الحكم على شروط شرطوها عليه فقبل منهم وأقبل إلى وارجلان حيث تولى الحكم إلى الأبد من بنى سيسين ومن بنى وكين ومن أهل وارجلان أجمعين ؛ وكان مجيء عبد الغفار هذا مبدأ للعهد الرابع من تاريخ وارجلان الحافل .

انقضى هذا العهد بين فتن وحروب داخلية وغارات متواصلة من الخارج وحيل بين العزابة وبين توجيه النـاس والسير بهم فى جميع الاتجاهات . واستبدت السلطة فى بعض الأحيان استبداداً أَخْفَتَ صوت الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، ويبـدو أن الاستمساك بالدين والمحافظة عليه ومراعاة آدابه لم يعد مثلما كان من قبل عندما كانت جميع الأمور بيد العزابة وتوالى الضغط على الإباضية فى وارجلان وما يجاورها وكانت الغارات توجه إليهم باسم المذهبية من ناس جهـلة لا يفرقون بين الحلال والحرام ولا بين مذهب ومذهب ، وإنما يتخذون المذهبية وسيلة لابتزاز المـال ، واستحلال الاستغلال ، فأثرت هذه المواقف على البلدان المجاورة لوارجلان فـكان الإباضية يتناقصون منها تحت الضغط المتواصل مرة بالهجرة ومرة بالانتساب إلى المذاهب الأخرى حتى انقرضوا من تلك البلاد .

أما وارجلان التى كانت فى ذلك الحين أقوى المراكز الإباضية فى المغرب الإسلامى فقد استطاعت أن تصمد وأن تحتفظ بـكيانها . وإن كانت تلك الظروف قد أثرت عليها تأثيراً كبيراً فأخذت فى الضعف ، وكثر فيها الجهل وانحرف الناس عن النهج القويم الذى كان عليه أسلافهم . وانعزل مجلس العزابة عن مهمته الحقيقية من قيـادة الأمة فى جميع الميادين والإشراف على المجتمع وتوجيهه — إلى هيئة قائمة فى المسجد مهمتها القيام بشعائر العبادة ثم الفتوى البعيدة عن التنفيذ .

ويبدو لى أن هذه الصورة شبيهة كل الشبه بما مر على جربة فى الأيام الأخيرة قبل انحلال مجلس العزابة . وكل ما هنالك من فرق أن المجلس فى جربة قد انحل كما انحل فى جبل نفوسة وانفرط ذلك العقد الكريم فلم يعد له أثر على المجتمع بل لم يعد له وجود لا شكلا ولا موضوعاً . أما فى وارجلان فقد استطاع المجلس أن يصمد وأن يقاوم وأن يحتفظ بمكانه من بيت الله .

واليوم وقد بزغت شمس الحرية على الجزائر العظيمة وانفتحت أبواب العلم والمعرفة للشباب المسلم فى كل الأصقاع وكل الأقطار . وأصبح ميسوراً لأبناء وارجلان الأذكياء أن يلحقوا بمعاهد العلم وأن يغترفوا منها بسهولة ويسر فعساهم أن يردوا لوارجلان مجدها العظيم ومركزها التاريخى الرفيع . وأن يغذوا مجلس العزابة بالعناصر المتعلمة المؤمنة التى تجمع بين الثقافة الواسعة الواعية والعقيدة المؤمنة الصادقة والسلوك المهذب القويم ، والعمل المتواصل الدءوب ليواصل مجلس العزابة الموقر رسالته العظيمة فى كفاح الباطل وكفاح الرذيلة ومحاربة المنكر . وإذا كان أسلافهم الكرام قد بلغوا من غزارة العلم ومتانة الدين وقوة الإرادة ما استطاعوا به أن يقوموا بواجبهم وأن يبلغوا رسالتهم وسط الأعاصير والزوابع فليس للأبناء اليوم عذر فى التقهقر أو التخلف أو الانحراف . وإذا كان أولئك الأسلاف العظام بلغوا إلى أسبانيا طلباً للعلم وتوغلوا إلى مجاهل إفريقيا طلباً للرزق ونشراً لدعوة الإسلام فما أحرى هذا الخلف وقد تيسرت له السبل أن يبلغوا ما لم يبلغه أولئك مع معاكسة الزمان وجور الأيام .

العهد الرابع

يمتد هذا العهد ما يقرب من قرنين ونصف من سنة ١٠٤٠ التى تولى فيها أسرة ابن علاهم الحكم على وارجلان إلى سنة ١٢٨٦ عندما احتلت فرنسا الجزائر .

وفى هذا العهد كانت وارجلان شبه إمارة مستقلة فقد كان يرأسها شريف يحكمها حكما مستبداً مطلقاً . وإن كان فى أغلب الأوقات يتبع الدولة العثمانية تبعية اسمية . يجمع لها الضرائب فى مواسمها ويسلمها إليها وليس له شأن بها غير ذلك . وقد كان الحكم طيلة هـذا العهد وراثياً فى أسرة بنى علاهم . وقد سار بعض الحكام من هذه الأسرة سيرة نظيفة نزيهة فيها كثير من العدل والاستقامة وسار آخرون سيرة فيها من الانحراف والاستبداد والظلم ما يبعد بهم عن منهج الحكم فى الإسلام . كما أن منهم من يستقيم فترة ثم يبدو له فينحرف ويرتكب مالم يرتكبه غيره من الظالمين . ومع هذه الحال المتقلبة التى كان عليها حكام وارجلان من أسرة بنى علاهم فقد كان أهل البلد راضين بهم ،ذلك لأن وجودهم كان يحمى البلاد من شرور المغامرين والمغيرين الذين لا ينفكون يهجمون على الآمنين يقتلون ويسلبون ويختلسون .

لقد كانت الجزائر كلها فى هذا العهد تابعة للدولة العثمانية ولكنها فى نفس الوقت لم تتمكن من التنظيم والاستقرار والحكم المباشر لا سيما فى الدواخل والجنوب وذلك أن الدول الغربية كانت لا تتوقف عن مهاجمة الجزائر فى مختلف الجهات وبمختلف الأساليب ، وسواء كانت الدوافع إلى

ذلك رغبة فى القرصنة التى احترفتها ورعتها بعض الدول الغربية مثل أسبانيا والبندقية ، أو كانت أسباباً استعمارية ، أو كانت أسباباً صليبية يمليها التعصب الدينى . فكانت تلك الهجمات تتوالى وإن اختلفت أماكنها مرة على الجزائر ومرة أخرى على وهران أو تلمسان أو عنابة أو بجاية أو غيرها. وكثيراً ما يجد أولئك المهاجمون من يساعدهم من المغامرين وينضم إليهم فى محاربة الدولة العثمانية طمعاً فى منصب أو جرياً وراء غنيمة تؤخذ . أو غنيمة تمنح ..وكان فى نفس الوقت تثور ثورات فى الدواخل من المغامرين طلاب الحكم أو طلاب المال وكانت الدولة غالباً مشغولة عنهم بمصارعة العدوان الخارجى وإيقافه عند حده فتستمر أعمالهم الفوضوية حتى تلتفت إليهم الدولة . وكانت وارجلان فى هذه الظروف المتقلبة هادئة راضية بوضعها فهى لا تثور على الدولة العثمانية ، ولا تحاول الاستقلال عنها . ولا تمتنع عن دفع الضريبة السنوية عليها . إلا أن هذا الاستقرار بالنسبة إلى علاقة وارجلان بالدولة الكبرى لم يكن عامل استقرار بالنسبة للبلد نفسه وللأسرة التى تحكمه . فقد كان الخلاف لا ينفك يثور بين أهل البلد بتحريض بعض المتعصبين للمذهبية الدينية كما كان النزاع لا يلبث أن ينشب بين أفراد الأسرة الحاكمة نزاعاً على الحكم ورغبة فى الاستقلال وقد كان ينبنى على ذلك فتن داخلية ومكائد سياسية ينجم عنها إزهاق أرواح إما بطريق الاغتيال الفردى أو الحرب الداخلى ومضى هذا العهد على وارجلان كما مضى العهد السابق لم تتمكن فيه من مراجعة نفسها وتصفية حسابها ، والرجوع بسيرتها إلى ما عرف من تاريخها المجيد . فبقى مجلس العزابة فى المسجد يقوم بالأمور الدينية الخاصة بالعبادة وليس له من أمر توجيه الناس ومعالجة مشاكلهم بشىء ، كما أنه لم يتمكن من محاربة البدعة فى انحراف الحكم

لا سيما وأن ولاة الحكم كانوا على غير مذهب الإباضية . فلم يكونوا يستمعون إلى رأى مجلس العزابة . وإذا شدد المجلس فى الإنكار على أحدهم لسوء تصرفه وانحرافه وعدم تقيده بأحكام الدين يعزو الحاكم ذلك إلى الخلاف المذهبى وينسبه إلى التعصب والتحكم ، ثم يثير العامة من المذاهب الأخرى فتحدث فتن بسبب ذلك بين الناس ويستقر هو فى منصبه بعد أن يضرب الأمة بعضها ببعض ، ويفرق كلمتها ، ويشعل بينها نار الشحناء والبغضاء .

وخلاصة القول فى هذا العهد أن وارجلان كانت فيه مستقلة منعزلة مشغولة بأحداثها الخاصة دائرة على نفسها وكانت علاقتها بأواسط إفريقيا أكثر من علاقتها بشمالها فقد كانت تجارتها وأسفارها متجهة إلى الجنوب أكثر مما كانت متصلة بالشمال وهذه الحركة المتجهة إلى الجنوب من وارجلان وما شابهها من الواحات كانت هى المعين الذى يستمد منه المسلمون فى إفريقيا المدد الروحى ، وكان أولئك المسافرون هم حقاً الدعاة الذين أبلغوا الإسلام إلى كل مكان فى هذه القارة السوداء المجهولة العظيمة .

فتن ساحقة فى وارجلان

لعل القارىء الكريم يذكر أن كلمة وارجلان صارت علماً على مدينة كانت عاصمة لعدد غير قليل من القرى والواحات اندثر أغلبها وغطتها الرمال ، ولعل من أهم الأسباب التى ساعدت الرمال على التغلب على تلك البلاد عدد من الفتن والحروب توالت مع عوامل الطبيعة القاسية . وفى هذا الفصل سوف أعرض صوراً لبعض الفتن الكبرى التى كان لها أثر بالغ على وارجلان . وقد تحدث الأستاذ أعزام عن هذه الفتن بإسهاب فمن شاء فليراجعها فى « غصن البـــان » أما فى هذا الفصل فسوف أعرضها باختصار وإيجاز .

١ ــ الفتنة الأولى : سبب هذه الفتنة فيما يبدو إنما هو عصبية جاهلية ونعرة قبلية ، وعدم تحكيم لكتاب الله فيما شجر بين الناس . وقد اختلفت أساليب المؤرخين فى عرض أحداث هذه الفتنة . والنتائج التى ترتبت عنها . وإن كان جميع المؤرخين متفقون أن سببها حادثة بسيطة من تلك الحوادث التى تقع كثيراً على معاطن المياه ــ بين القوافل المتعارضة ، أو رعاة الماشية الواردة ، أو بعوث الأحياء الضاربة فى الصحراء لاستقاء المياه .

وقد ذكر الأستاذ أعزام فى غصن البان أن امرأة ذهبت إلى بئر لتستقى وفى أثناء ذلك وردت على البئر إبل لقبيلة أخرى فتدافعت على المرأة وزاحمتها فتقطع رشاء سقائها ووقع فى البئر . فرجعت إلى أهل حيها شاكية دون أن تستقى فصحبها رجل من حيها إلى البئر ليلوم صاحب الإبل ويعتب عليه إهماله فوقع بينهما أخذ ورد حتى بلغ بهما إلى نهاية الغضب فوثب

صاحب الإبل على صاحب المرأة فقتله والتحمت قبيلتاهما فى معركة حامية ونصر كلا من القبيلتين قبائل أخرى فاتسع الخرق ومات عدد من الناس وجرح آخرون وكانت هذه الفتنة أول شرارة داخلية أوقدت فى منطقة وارجلان وكانت لها آثار بعيدة المدى فيما بعد، وقد ذكر أبو عباس الدرجينى حين تحدث عنها أن الفتنة لم تنته بانتهاء المعركة فى موقعة البئر ، وإنما تغلب فيها التعصب القبلى فكانت كل من القبائل المتعادية تحاول الهجوم المفاجىء على الأخرى للأخذ بالثأر .

ورغم أن عدداً من كبار المشائخ حاولوا — بكل جهد — إطفاء هذا الحريق وشددوا النكير ، ومنهم من تقاطع قومه ووصفهم بالعدوان وخرج مغاضباً لهم ، لكن كل ذلك لم يوقف سيل الدماء ، ولم يستل الضغائن من القلوب ولم يرجع الأواصر بين تلك القبائل إلى ما كانت عليه ، وكان هذا الوضع هو الذى مكن للنكبة الأخرى التى حاقت بالبلاد على يد ابن غانية فى أوائل القرن السابع وكانت هذه الفتنة فى أوائل القرن السادس فى أواخر عهد ما كسن بن الخير وأضرابه .

٢ — الفتنة الثانية : كان ابن غانية يحيى بن إسحاق مغامراً جريئاً عمل على أن ينتقم من الموحدين وأن يقوض ملكهم فكان يتنقل بين بلاد المغرب الإسلامى يقتل ويغنم ويحتل ولا يستقر ، إنه كان لا يثبت ملكا ، ولا يستقر فى مكان . وكان الموحدون يتعقبونه أينما حل وفى سنة ٦٢٤ مر بمنطقة وارجلان فارتكب فيها من الأفاعيل ما لا يرتكبه إلا مغامر لا يعصمه دين ولا خلق .

وقد عرض علينا الأستاذ أعزام صورة واضحة جلية وإن كانت

مختصرة لما تركه الميورقى عند مروره بوارجلان قال فى « غصن البان » ما يلى :

« وهو يحيى بن إسحاق المتلثم المعروف بابن غانية منسوب إلى جزيرة ميورقة بالأندلس ، ثار بأفريقيا وفعل فيها العجائب من الفساد ، وكان أن كتب على هذه الأوطان الخراب والفتن والأهوال ، قدم هذا الغشوم ثائراً سنة ٦٢٤ لهاته الأوطان فخرب البلاد وقتل العباد ، وكان سلوكه على بلاد وارجلان فنزل بها ، وهدم قصورها وقطع نخيلها ، وأفسد عيونها ، وشتت جموعها . وزاد إلى حومة أربغ وبلاد سوف وجبل نفوسة وبنى دمر ، ونزل على عين الصفا ، بسدراتة فأفسدها فى ثلاثين يوماً . ثم على عين قبائل يفرن فأفسدها فى ثلاثين يوماً . فلما وقع بهم هذا هربوا من أوطانهم طالبين السلامة فمنهم من هرب إلى جهة المشرق ، ومنهم من هرب إلى وادى ميزاب ومنهم من هرب إلى وادى ملوية ، ومنهم من تحصن بجبل الكريمة وهو جبل بناحية جبل العباد وسدراتة فى غاية المنعة صعب الارتقاء ولا طريق لصعوده إلا من ناحية واحدة ، فتحصنوا فيه فحاصرهم العدو من أسفله مدة شهر . ثم انصرف عنهم لما يأس منهم . ويقول الأستاذ أعزام :

« ثم نزل بوارجلان وأهل أنقوصة وحاصرهم حصاراً شديداً إلى أن أعطوه أموالا كثيرة ، واتفقوا معه على غير الحق خوفاً من جوره وتعسفه » . . هذه الصورة التى وضعها الأستاذ أعزام لفقنة الميورقى معتمداً فيها على مصادر تاريخية أهمها ابن الأثير كما يقول صاحب الكتاب نفسه وهى صورة مما كان يقاسيه أهل تلك البلاد من المتاعب بسبب المغامرين من طلاب الحكم وبسبب جور الدول الظالمة التى تعمل على تثبيت سلطانها بكل وسيلة .

ووارجلان بموقعها الممتاز الذى يربط بين الصحراء وبلاد الشمال وبين تونس والجزائر كانت محط أنظار الطامعين والمتنازعين من طلاب الملك . ومع أن أهلها بسبب كثرة التقلبات السياسية - كانوا لا يهمهم من يتولى الحكم فى بلادهم لأن الحكام والأحكام فى ذلك الحين كانت متشابهة كلها بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامى ولذلك فهم يقفون منها موقفاً سلبياً لا يساعدون بعضها على بعض إلا أنهم كانوا يلاقون على موقفهم هذا أشد العنت من كل من تسنح له فرصة التغلب على البلاد . والسيادة بها ولو لزمن قليل وعندما يهجم عليها طالب من طلاب الحكم فيتغلب على الحاكم السابق ويطرده منها أو يقتله فإنه ينزل بأهل البلد جميع وسائل العقوبة من قتل وتعذيب ومصادرة أموال وفرض ضرائب وغرامات ، وإن كان يعلم علم اليقين أن السكان كانوا على حياد تام فى المعارك الناشبة بينه وبين سلفه . ويرى أن ذلك الحياد أو ذلك الموقف السلبى بين المتخاصمين لا ينهض عذراً ولا يلقى مبرراً . والواقع إنما يرتكبون ما يرتكبونه بدافعين : الدافع الأول هو التماس الوسائل والأسباب لجمع أكثر ما يمكن من المال ، والدافع الثانى هو إشاعة الخوف والإرهاب حتى يستجيب السكان الأبرياء لجميع المطالب .

إن أولئك الحكام المتسلطين الذين كانوا يسيرون بالفتنة يوقدونها أينما ساروا كان يساعدهم أن يحسبوا الشعب فى أى بلد دخلوه مناوئاً لهم مؤازراً لخصومهم حتى يجدوا بين الناس وفى دخائل نفوسهم أيضاً مبرراً لما يرتكبونه من أعمال ويعاقبون كما يشاءون بطريق التغريم والمصادرة وفرض الضرائب غير المحدودة لأنهم دائماً فى أشد الحاجة إلى المزيد من المال وفى جميع الأحوال ومتى تعسرت عليهم هذه السبل كلها ولم ترو ظمأهم

فإنهم يلتمسون وسائل أخرى ويعودون على ذوى اليسار . ونظرة واحدة إلى حكام اليوم لا سيما فى البلاد الصغيرة والفقيرة من أحياء العالم كافية لتفهم بها سلوك أولئك الناس الذين يرتفعون من غير شىء كما ترتفع الزوابع والأعاصير ثم يذوبون فى السراب كما تذوب تلك الزوابع والأعاصير أحيانا قبل أن يستفيق من مرت به من الدهشة .

٣ ـ الفتنة الثالثة : تحدث الأستاذ الكعاك عن أولئك المغامرين الذين يسودون بعض القبائل ثم يستولون على الحكم ويلقبون أنفسهم بأضخم الألقاب فقال فى كتابه الموجز ص ٤٥١ ما يلى :

« لم تكن هذه الأسر بدول لها شأن عظيم ولكنها تشابه ملوك الطوائف فى الأندلس ولو أنها لم تبلغ إلى درجتها من الرقى والسطوة ، وهى أكثر شبهاً بمناطق الأسياد فى القرون الوسطى لا سيما وهى لا تبعد عليها فى الشكل والجوهر . فإن أمير القبيلة يعيش عيشة (السيد) فيتخذ له قلعة يتحصن بها ويجعلها قاعدته المدنية والحربية ، وببسط نفوذه على قبيلته التى تطيعه كل الطاعة وتمده بالمال والرجال وتتطوع له فى كل شأن يريده فيهجم بها على القبائل المجاورة لغزوها وسبيها ، والإثراء والتوسع على حسابها » .

وبعد أسطر يقول:« ومن جملة هذه الدول دولة بنى جلاب التى تأسست فى مدينة تقرت فى القرن العاشر فى أواخر أيام بنى زيان واستولت على جميع ولاية وادى أريغ » .

ويتحدث مؤرخ وارجلان الأستاذ أعزام عن بنى جلاب فيقول : « قلت لما أن ثبت قدمهم فى هذه البلاد حدثتهم نفوسهم بالإغارة على أموال الإباضية بوارجلان سنة ١٠٧٠ هـ قدموا إلى وارجلان بجيشهم الجرار

وشنوا غاراتهم على البلاد وأخذوا طريق الفساد والقتل والنهب وأعانهم جميع من ينتمى إلى الفساد والغالب من أنقوصة لما أنها فى ذلك الأوان تحت طاعة وادى أريغ كما ذكره المؤرخون » .

ثم يتحدث الأستاذ أعزام عن تفاصيل المعركة ونتائجها وآثارها ، ويذكر شيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبو اليقظان إبراهيم فى كتابه القيم « نموذج إمارة الدفاع » فتنة أخرى قام بها بنو جلاب على وارجلان سنة ١٢٢٦ هـ كانت الفتنة الأولى التى قام بها بنو جلاب فى أول حكمهم حينما استقرت أسرتهم فى تقرت ثم استطاعت أن تتغلب على الجهات المجاورة من أريغ وأنقوصة وتبسط عليها نفوذها وكانت تأمل أن تتوسع فكونت جيشاً لجباً واتجهت به إلى وارجلان عروس الصحراء ومعقل القوافل وأغنى المناطق ولكن أهل وارجلان قد عرفوا عزم بنى جلاب فاستعدوا للقائهم ـ رغم الطوابير الخامسة ـ واستعانوا على دفع العدوان بالأصدقاء من جيرانهم الذين كانوا يريدون ضرب بنى جلاب قبل أن يستفحل أمرهم ، ولا شك أن بنى جلاب إذا استطاعوا أن يتغلبوا على وارجلان فسوف يحاولون الاستيلاء على غيرها وإخضاع البلاد جميعها لهم .

وصل بنو جلاب إلى وارجلان ووقعت معركة حامية الوطيس بين الفريقين ذهبت فيها أرواح كريمة وأموال غزيرة ثم انهزم بنو جلاب وخسروا المعركة والسمعة . وكانت هذه الوقفة الصامدة من وارجلان فى وجوههم وردهم على أدبارهم كافية لأن تجعلهم حراصاً على عدم التوسع وعدم العدوان على بلاد أخرى حتى سنة ١٢٢٦ فى أواخر أيامهم على ما ذكره قطب الأئمة رحمه الله فأرادوا أن يعيدوا الكرة وجهزوا جيشاً لجباً وقصدوا

وارجلان وسمع أهل وارجلان هذه المرة أيضاً بما عزم عليه بنو جلاب فاستعدوا للقائهم واستعانوا بإخوانهم من بنى ميزاب فأنجدوهم بجيش تحت قيادة بطل من أبطالهم . ولما قرب بنو جلاب من وارجلان ووجدوا الاستعداد والتنظيم والعزم على الدفاع وخافوا أن تكون هذه الموقعة أشأم من الموقعة الأولى ـ طلبوا السلامة ، ورجعوا من حيث أتوا وقد خلد بعض الشعراء هذه الموقعة بقصيدة رائعة غير موجودة عندى الآن وإن بقيت أبيات منها عالقة بذهنى وقد وصف الشاعر الاستعداد للمعركة والتحام القتال وانسحاب العدو فقال :

... ... فانهزمت عساكر الشيطان

تتبعهم خيول وادى مصعب أكرم بأهل الخيل من شجعان

وقد ذهبت عنى الأبيات إلا أن الصورة كما رسمها الشاعر لا تزال مرتسمة بذهنى كما يأتى :

إن الجيش المغير بعد أن ثبت قواعده وجلب الذخائر وسوى صفوفه وعزم على القتال . استولى عليه الرعب فاضطر إلى الفرار تاركاً فسطاط القائد وخيام الجنود مبنية ، مخلفاً وراءه ما جلب من ذخيرة البارود والرصاص . وانفلت برقابه لا يلوى على شىء .

والحقيقة أن الفتنة الأولى لبنى جلاب وإن تكن قد تسببت لأهل وارجلان فى خسارة أموال وأبطال إلا أنها أرجعت إلى القوم ثقتهم فى أنفسهم واتحادهم مع إخوانهم ، وقد نتج عن ذلك انتصارهم فى المعركتين الكبيرتين اللتين سعى إليهما حكام هذه الدولة التى استقرت فى تقرت وتريد أن تمتد إلى اليمين واليسار .

٤ ـ الفتنة الرابعة : بوشوشة مغامر آخر من أولئك المغامرين الذين يصطادون فى المـاء العـكر ، وينتهزون الفرص فى أسوأ الظروف قال عنه شيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبو اليقظان رحمه الله ما يلى :

« ذلك أن الثائر محمد بوشوشة لمـا نصب نفوذه على الجانب القسطنطينى إبان الزحف الفرنسى لمـا استولى على وارجلان أمعن فى التقتيل والتنـكيل فزرع الرعب فى القلوب .

أما الأستاذ أعزام فقد تناول الحادثة بشىء من التفصيل والإسهاب فى كتاب « غصن البان » نقتطف منه ما يلى :

« قدم لوارجلان بوشوشة المدعى الشرف ، ونزلها على نية الفساد ـ والإيقاع بأهاليها ، فتلقاه بعض الناس بوارجلان واتفقوا معه على إخلاء البلد والنهب ، وكان لمـا سمع الأهالى بقدومه اجتمع سكان المدينة من الأعراش الثلاثة ، واتفقوا على عدم طاعته والدخول تحت نفوذه ـ والقائد إذ ذاك على ـ بنى وكين ـ الشيخ ابن الحاج معيزة ، وعلى بنى إبراهيم الحاج حمو ، وعلى بنى سيسين جلول بن ياحمان ، ورئيس الطلبة الإباضية الحاج أبو عزيز خواجة وبعد الاتفاق أعطوا العهود والمواثيق على عدم الخداع . ثم أن رئيس الطلبة أبدى لهم رأياً أخذوا به . وهو أن يبنوا بين كل عرش سوراً وباباً خوفاً من الخداع ، فإذا خدع عرش من الأعراش كان ذلك يخصه دون الآخرين » .

كان أهل وارجلان بمذهبيهم الإباضى والمالكى ، وبعنصريهم البربرى والعربى قد اتحدوا فى فتنة بنى جلاب وكونوا قوة واحدة للدفاع فاستطاعوا أن يصمدوا وأن يردوا العدوان عن بلادهم وقد وقفوا مثل هذا الموقف

فى جميع الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة فلم يستطع أحد أن ينال منهم .

فلما جاء بوشوشة استطاع أن يكوِّن فيهم طابوراً خامساً ، وأن يزرع بينهم كلمة التفرقة ، وأن يتخذ لنفسه من يساعده من الداخل ولما تأكد أن لديه أعواناً داخل المدينة يعملون له سراً جهز جيشه واستعان بكثير من الطامعين الذين يشتركون فى الفتن والحروب طمعاً فى الغنيمة والكسب . وعسكر الرجل خارج المدينة قريباً منها . فانضم إليه من سكان وارجلان من كان متفقاً معه سراً وكان ذلك مبدأ الخديعة والمكر وتفريق الكلمة ووقع الصدام بين الجند المهاجم وأهل المدينة فكانت كفة المعتدين هى الراجحة طوال اليوم الأول . وعندما سكتت ألسنة الرصاص عند الغروب بدأت ألسنة الفتنة والمكيدة تعمل . فأشيع بين أتباع المذهب المالكى أن بوشوشة إنما يريد القضاء على الإباضية فقط . يقول الأستاذ أعزام :

« ثم وقع الخداع من بعض المفسدين ، وفتحوا لبوشوشة الأبواب بحجة أن بوشوشة قدم لقتال الإباضية خاصة فدخلت عساكر بوشوشة فنهبوا إباضية بنى سيسين وقتلوا منهم من وقع بأيديهم وخانت منيته » . وهرب من استطاع الهروب ولما رأى الناس ما وقع لبنى سيسين وأن الغزاة سينتصرون لا محالة اتفقوا على التسليم . فخرج زعماء الأعراش إليه يحملون علامات التسليم ووقف منهم موقف حاكم الأباريق فى القصة المشهورة يعفو عن هذا ويقتل هذا ويغرم هذا حسبما تمليه عنطزة مغامر منتصر وغروره .

ومن أسوأ ما فعل أنه غرم الشيخ ابن الحاج معيزة قائد بنى وكين والحاج أبا عزيز بن خواجة رئيس الطلبة بمبلغ عشرة آلاف فرنك لكل

واحد منهما على أن تدفع حالا . فجمع بنو وكين هذا المبلغ الضخم ودفعوه له وما تسلم المبلغ حتى أمر الشيخين بالرجوع إلى البلد . ولكنه حين انفصلا عنه أمر بإطلاق الرصاص عليهما فقتلا . وكان جلول بن باحمان مختفياً عند قائد بنى إبراهيم فبعث إليه بو شوشة سبحته علامة على الأمان فلما جاء الرجل أطلق عليه الرصاص قبل أن يصل إلى خيمة الحاكم بخطوات .

وقد ارتكب المغامر الجرىء ما يرتكبه مغامر أفاق يجرى وراء المال والسلطان دون أن يعصمه دين أو خلق وذهب بما كسبت يداه وبقيت وارجلان وأهل وارجلان درة فى الصحراء وحلقة اتصال بين أربعة أقطار مسلمة ، ومركز إشعاع من مراكز الدين والخلق والعلم والاستقامة[1] .

هذه صورة مصغرة جداً عن وارجلان فى تاريخها الإسلامى الحافل أما الصورة الناصعة الحية فهى تلك التى يرسمها أو سوف يرسمها لنا أبناؤها الأبرار الأذكياء ، الأقوياء فى عهد الاستقلال الزاهر إذا تم لهم حكم إسلامى نظيف ، وديموقراطية عادلة شاملة . وسلام وأمن واطمئنان . لا تتحرك فيه فتنة ولا تثور زوبعة ، ولا يسعى — إلى تفريق الصفوف ولا يستغل الظروف فيه — مغامر يسعى إلى السلطة أو يجرى وراء المال أو تقوم نفسيته المريضة على عصبية جاهلية من التفريق بين المذاهب أو الأجناس أو العناصر .

---

(١) قرأت هذا الفصل على الأخ العزيز الشيخ أبى معقل عمر بن داوود فكان من ملاحظته أن نتغاضى عن مساوىء بوشوشة وأن نهمل ما ارتكبه من جرائم ضد المواطنين لأنه فى الأصل كان ثائراً على الاستعمار . فنيته فى محاربة الاستعمار تغطى على الفظائع التى ارتكبها مع بنى قومه .

بين وارجلان ووادى ميزاب

لا شك أن كثيراً من سكان سدراتة ووارجلان هاجروا إلى وادى ميزاب ـ بادية بنى مصعب ـ وقد استمرت تلك الهجرة المتقطعة من أوائل القرن الخامس فى الثلث الأول من القرن السابع . وأسباب تلك الهجرة المتطاولة متعددة بعضها اقتصادى وبعضها علمى ، وبعضها سياسى .

ومن المؤسف أن بعض المؤرخين المستأخرين يذكرون أن سبب هجرة أهل سدراتة إلى وادى ميزاب إنما هى الفتن التى أشعلها ضدهم إخوتهم بنو وارجلان . وأحسب أن هذه الكلمة وردت أول ما وردت إما فى القصص الشعبى الذى يعلل الأحداث التاريخية البعيدة بالخيال والمبالغة . وإما على لسان مؤرخ غير نزيه القصد يرمى إلى إيقاع الفتنة بين الأخوين العزيزين المتحابين . فانساق بعض مؤرخينا المعاصرين وراء تلك الرواية . بل ذهب بعضهم إلى المفاضلة بين وارجلان القديمة وسدراتة الحديثة وما تتصف به الأولى من شيخوخة وهرم وتتحلى به الثانية من شباب وجمال جاءت به من الشمال . وحاول أن يصور الدافع ـ حسب ظنه ـ إلى الخلاف بينهما بغيرة أهل وارجلان من أهل سدراتة وحسدهم لهم على نجاحهم مما حملهم على مضايقتهم ودفعهم إلى الهجرة بعيداً عنهم .

وقد كنت أرى أن هذا لا ينسجم مع منطق الأحداث فى تلك الفترة من التاريخ لا سيما أن وارجلان وسدراتة كانتا تتمتعان فى ذلك الحين بازدهار دينى وعلمى وخلقى رفيع .

وعندما كنت أكتب هذا الفصل وأنا قلق من وجود هذه الفكرة وسيطرتها على بعض المؤرخين المعاصرين حتى حسبها حقيقة ـ وكان بين يدى ما تيسر من مراجع التاريخ من مؤلفين قدماء ومحدثين أقلبها صفحة صفحة لاستخلاص الحقائق التاريخية التى تسير حسب ما تقتضيه الأحداث من جهة وينسجم مع الخلق الإباضى من جهة أخرى ويتفق مع نفسية طائفتين من الناس تعتنقان مبدأ واحداً وقع عليهما كليهما بسببه عدوان ـ رجعت إلى رسالة أستاذنا الفاضل الشيخ أبى اليقظان رحمه الله فإذا به يقول فيها ما نصه :

« وقد غلط من زعم أن إباضية وادى ميزاب هم بقية الرستميين الذين طردهم أهل وارجلان لمنافستهم لهم فى الحياة ، وقد رددت على إذاعة الجزائر برسالة محكمة خلاصتها ما سبق ، وحاشا إخواننا بوارجلان أن يتضايقوا من هؤلاء الضيوف الكرام ، وقد قاسموهم أموالهم كما فعل ذلك الغنى الكبير أبو صالح جنون بن يمريان » .

ويقول رحمه الله فى موضع آخر من الرسالة :

« ثم أخذت جموع الإباضية تتلاحق إلى الوادى من وادى أريغ وجربة ونفوسة وأخص من بين أولئك بقية بنى رستم من وارجلان » .

ويقول فى رسالة أخرى ما يلى :

« بعد استقرار الإباضية فى الوادى على النمط المؤمى إليه أخذ أفواج الإباضية تفد من بلاد الإباضية فى شمال إفريقيا زرافات ووحداناً من نفوسة وجربة ووارجلان وأريغ ومن المغرب كما رأيت ، ومع تناسل أجيالهم من بعد عمر الوادى بالإباضية إلى اليوم » .

ويقول الأستاذ توفيق المدنى فى تاريخه القيم « كتاب الجزائر » صفحة ١١٠ ما يلى :

« ولما غصت بلاد وارجلان وأريغ برجال الإباضية وأرادت أن تتنفس فى معيشتها فيما جاورها ، رأت جبال بنى مصعب « وادى ميزاب » أحسن ملجأ لها ، وأمنع حصن لأجيالها المتعاقبة فتكاثرت الهجرة إليها منها ومن سجلماسة بعد انقراض ملك بنى مدرارا مستعمرة تيهرت ومن نواحى المغرب فتكونت بذلك فى عصور متعاقبة بلاد ميزاب السبع » .

ويقول الأستاذ محمد على دبوز فى كتابه القيم « نهضة الجزائر الحديثة » صفحة ١٦١ ما يلى :

« فى القرن الخامس الهجرى ابتدأت هجرة الميزابيين إلى ميزاب من سدراتة ووارجلان ووادى أُريغ » .

ونستخلص من الفصل الذى كتبه الأستاذ الدبوز عن هجرة الإباضية من سدراتة إلى بادية بنى مصعب « وادى ميزاب » عدة أسباب منها ما يلى :

١ ـ « القحط الذى أصاب تلك النواحى بجفاف الأرض ، إن العمارة والفلاحة قد اتسعت فأرهقت العيون التى كانت تكفى وارجلان فغار كثير منها فانقطعت مياهها ، فاحترقت غابات كثيرة من النخيل وتضررت الفلاحة » .

٢ ـ « كثبان الرمال الكثيرة فى تلك النواحى ، فترى العواصف تهيلها على البساتين والمزارع فتقتلها » .

٣ ـ « كانت سدراتة وما يحيط بها من المدن فى السهول لا تستطيع أن تعتصم من العدو القوى الذى يصر أسنانه غيظاً وحنقاً عليها فى الشمال ».

وقبل أن يذكر الأستاذ محمد على الدبوز هذه الأسباب الحقيقية لهجرة بعض سكان سدراتة ووارجلان وغيرهم ذكر خرافة نزاع أهل وارجلان لأهل سدراتة وحسدهم لهم وغيرتهم منهم ومضايقتهم لهم . ففكروا فى الهجرة تبعاً لبعض تلك الرويات دون أن يهتم بنقدها .

والحقيقة التى لامراء فيها والتى تنطبق على أخلاق المؤمنين الصادقين فى كل عصر ، والتى نجدها فى المجتمعات الإباضية فى أى مكان وما تدل عليه الأحداث التاريخية فى تلك العهود واقتران اسمى وارجلان وسدراتة فى كل التحركات الجماعية والفردية هذه الحقيقة تكذب قصة العداء بين أهل وارجلان وإخوتهم فى سدراتة بل إن سدراتة لم تكن فى الواقع إلا ضاحية من ضواحى وارجلان الكثيرة وما كان الناس يهتمون بالتفريق بين وارجلان وسدراتة حتى أن كثيراً من علمائهم سواء أكانوا من وارجلان أو من سدراتة أو كانوا يعيشون فى وارجلان أو فى سدراتة كانوا فى الغالب ينسبون إلى وارجلان وأن الجموع المهاجرة سواء إلى وادى ميزاب أو إلى غيره غالباً ما تتكون من أهل وارجلان . وأهل سدراتة .

إن الأحداث التاريخية فى تفاصيلها والتى استطعنا أن نطلع عليها تكذب قصة العداوة بين وارجلان وسكان سدراتة الذين أصبح بعضهم فيما بعد ضمن سكان وادى ميزاب ، ومنهم ومن غيرهم تكون هذا الشعب الميزابى الكريم .

وكما آوى جبل نفوسة كل من هاجر إليه وأحسن إليهم وقاسمهم فى

جميع مرافق الحياة ، وكما آوت جربة جميع من هاجر إليها ، وقاسمتهم فى جميع مرافق الحياة ، وهيأت لهم سبل العيش الكريم . وكما آوى وادى ميزاب ولا يزال يأوى كل من هاجر إليه ووفر له الحياة الكريمة وقاسمه المال والوطن ؛ كذلك فعلت وارجلان مع من هاجر إليها من الشمال والشرق والغرب ، وفتحت لهم صدرها ، وأولتهم خيرها وبرها وعاملتهم معاملة المؤمن لأخيه المؤمن حين يضيق به مجال الحياة ولم تتنكر لإخوتها فى يوم من الأيام . ولقد كانت وارجلان لاسيما فى تلك العهود أشد براً وأكثر عطفاً وأعمق إيماناً واستشعاراً للمسئولية الدينية والأخوية ـ من أن تصد إخوانها أو تعاملهم بالغلظة التى تتركهم يفكرون فى الهجرة وإنما حمل أهل سدراتة على الهجرة بل وأهل وارجلان أنفسهم تلك العوامل الأخرى التى أشرنا إليها فى أول هذا الفصل ويدل لذلك أن الهجرة كانت تدريجية بطيئة وكانت من سدراتة ومن وارجلان أيضاً ومن أريغ وغيرها ولو كانت هجرة مبنية على خلاف وعداوة وتحاسد ثم نزاع وتغالب لاقترنت بما تقترن به تلك الحركات عادة من ألوان التعاسة والمآسى ، ومناظر البؤس الجماعى . ولكنها كانت هجرة فردية مبنية على أسباب معيشية ، وكانت هجرة تدريجية حتى بالنسبة للأفراد فقد كان الكثير من أولئك الذين انتقلوا من سدراتة أو وارجلان إلى وادى ميزاب ـ لم يكونوا فى أول الأمر ينوون الاستقرار أو الإقامة ، وإنما ارتحلوا وراء أنعامهم التى سبقتهم فرحب بهم إخوتهم وطابت لهم الحياة فأقاموا . ومنهم من أحس بالجفاف فى سدراتة أو وارجلان وازدياد قسوة الطبيعة فذهبوا يرتادون الأماكن إلى وادى ميزاب أو غيرها فطاب لهم المكان الجديد فرجعوا وقرروا الارتحال إليه بأهلهم وأموالهم .

ونظرة واحدة إلى تاريخ تكوّن القرى فى وادى ميزاب توضح لنا أن الهجرة إليه كانت تدريجية فقد تكونت العطف فى سنة ٤٠٢ حسبما ذكره الأستاذ الدبوز وهذا يعنى أن الناس الذين التفوا حول الإمام أبى عبد الله من المصعبيين أنفسهم ومن الذين التحقوا بمواشيهم من أهل سدراتة ووارجلان قد راقتهم الإقامة مع الإمام الكبير فى وادى ميزاب فتكوّنت المجموعة السكنية الأولى لهذه القرية الأولى .

ولم تتكون المجموعة السكنية الأولى للقرية الثانية إلا بعد خمس وثلاثين سنة حيث تكونت قرية بنورة . ولم تتكون المجموعة السكنية الأولى للقرية الثالثة إلا بعد أربعين سنة من تكون الثانية .

ثم هدأت الهجرة نوعاً ما وتوقفت حركة التحضر فى المصعبيين نحو ثلاثة قرون حيث بدأت تتجمع المنازل الأولى للقرية الرابعة وبعد نصف قرن آخر تكونت القرية الخامسة ثم هدأت حركة البناء نحو ثلاثة قرون تكوّنت بعدها القريتان السادسة والسابعة .

ومع أن هذه القرى تنتشر على بادية بنى مصعب وتستغل مياه ثلاثة أودية إلا أن وادى ميزاب غلب عليهما أخيراً . والشعب الذى يعيش فى هذه المنطقة أصبح معروفاً ببنى ميزاب ـ وميزاب على ما يخيل إلىّ هى كلمة محرفة عن مصعب الذى تنتسب إلى أبنائه البادية وأحد الأودية الثلاثة التى تخترقها معترضة سلاسل الهضاب والجبال فتكوّن منها ما يشبه الشبكة .

وادى مـــيزاب

قال قطب الأئمة رحمه الله فى رسالته صفحة ٣٨ ما يلى :

« وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول بل كانوا معتزلة يسافرون إلى تاهرت لقتال الإباضية » وبعد أسطر يقول :

« وبعد انقراضها جاء فلهم فانضموا إلى من سكن هذه القرى من المعتزلة وجاء أيضاً أولاد عبد الله من المغرب كما جاء منه بابه عيسى العلوانى، وجاء قوم من نفوسة وأكثرهم نزل يسجن وهم أولاد عمى عيسى وبعضهم نزل غارداية وهم اللالوتيون وبعضهم العطف . ومن جربة عمى سعيدو تناسل فى غارداية وقليل من بنى ميزاب جاءوا من جربة ونفوسة أولاد أبى مسور فى العطف ، وجاء أيضاً من تاهرت ، وجاءوا أيضاً من ناحية فساطو من جبل نفوسة .

وسبب انضمامهم إلى موضع الجدب هو الخوف من الجورة » . انتهى بتصرف .

قال الأستاذ عثمان الكعاك فى كتابه « موجز التاريخ العام للجزائر » ص ٤٥٣ ما يلى :

«ولما سقطت الدولة الرستمية الإباضية بقى المذهب قائماً عند النفوسيين بطرابلس والجربيين بتونس وبنى ميزاب بالجزائر . والميزابيون هؤلاء قوم من قبيلة نفوسة قد جاءوا تحت قيادة الإمام يعقوب من أحفاد الرستميين إلى جنوب مدينة وارجلان الغربى سنة ٣٦٠ وهو وادى مية وأسسوا به

المنازل منها الكريمة وصدراته وجبل اباظ[١] .

ولما كانوا أمة ناشطة عاملة استطاعوا أن يجعلوا وادى مية بلاداً خصبة بفضل جدهم واجتهادهم وقد ساعدهم على ذلك بعدهم عن المعارك الشمالية ، وإقامتهم بالصحراء محل استقلالهم . وقد تخوف منهم بنو وارجلان وخشوا منافستهم فأجلوهم عن وادى مية بعد مضى نصف قرن[٢] فخرجوا وقصدوا وادى ميزاب وقد كان موطناً للمعتزلة الجزائريين .

والشبكة عبارة عن نجد من الجلامد تخترقها الأودية الضيقة تبلغ مساحتها ٨٠٠٠ ك م على مسافة ١١٠ ك م من مدينة الأغواط وقد استطاع الميزابيون أن يحولوا تلك الجلامد إلى بساتين ومزارع ، ويؤسسوا بها المدن وقد سكنوا فى أول أمرهم الخيام ثم أن الرئيس خليفة بن أبغور أسس مدينة العطف سنة ٤٠٢ هـ »[٣].

ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى فى كتابه القيم « كتاب الجزائر » ما يلى :

« والشبكة تشمل المدن الميزابية السبعة : غارداية ، وبنى يزقن ، وبنورة ، ومليكة ، والقرارة ، والعطف ، وبريان » .

---

(١) الاسم الصحيح هو جبل العباد (لا اباظ) ولا تزال آثار عشرات المحاريب واضحة فوقه .

(٢) سبق أن أوضحنا أن هذه الفكرة لا أساس لها من الصحة راجع المقال السابق إن شئت .

(٣) إذا صح هذا فإنه يناسب الفترة التى كان محمد بن بكر يزور هذه المنطقة وقد يكون خليفة هذا أحد تلاميذ أبى عبد الله أو أتباعه من بنى مصعب ويكون تأسيس العطف على يد أبى عبد الله لا قبله كما يرجح أستاذنا باكلى والمؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود .

ويقول الأستاذ محمد دبوز فى كتابه « نهضة الجزائر الحديثة» الجزء الأول صفحة ١٤٩ ما يلى :

« وادى ميزاب يقع فى جنوب الجزائر فى شمال الصحراء الكبرى فى ناحية تسمى الشبكة . وهى منطقة جميلة تتخللها أودية ، ويبعد ميزاب عن مدينة الجزائر بثلاثمائة وعشرين ميلا ونصف الميل . ويتكون وادى ميزاب من سبع مدن ، خمسة منها متجاورة وهى العطف ، وبنورة ، ومليكة ، وبنى يسقن ، وغارداية . والثنتان تبعدان عن المجموعة بعض البعد وهى مدينة بريان التى تبعد عنها بأربعة وعشرين ميلا ، وهى فى شمالها الشرقى ، ومدينة القرارة البعيدة عن أخواتها بأربعين ميلا ونصف الميل وهى فى شرقها » .

ويقول الأستاذ دبوز فى صفحة أخرى ما يلى :

« وكانت هذه النواحى عبارة عن مجموعة من الجبال متشابكة فى شمال الصحراء تتخللها ثلاثة أودية كبيرة هى : وادى ميزاب بجنوب الأغواط فى ناحية (نيلى) وتنحدر جنوباً نحو ميزاب فتمر منعطفة بين جباله ورباه وتنتهى فى شمال وارجلان برمال (أنقوسه) » .

هذا بعض ما قاله المؤرخان الكبيران : المدنى ودبوز . ولا شك أن موقع وادى ميزاب من أرض الشبكة هو كما قالا . ويكوِّن جزءاً منها قد يكون أكثرها خصوبة وعمراناً ولذلك غلب اسمه على المنطقة كلها .

وترى أيها القارىء الكريم أن هـــذه المنطقة تطلق عليها ثلاثة أسماء هى :

بادية بنى مصعب ، أرض الشبكة ، وادى ميزاب . فما هو الاسم الأصلى لهذه الأرض ؟ يبدو لى أن التسمية الأصلية لهذه الأرض هى بادية

بنى مصعب ، لأن بنى مصعب هم الذين كانوا يعمرون هذه المنطقة ، ويتنقلون بين أجزائها فكانت لهم منتجعاً ومرتعاً . ولما كانت هذه البادية تخترقها وديان ثلاثة على شكل حبال طويلة ، وتعترضها سلاسل ممتدة من الجبال شابهت فى صورتها الشبكة فأطلق عليها أيضاً أرض الشبكة. أما كلمة ميزاب فقد تكون اسماً لأحد الأودية الثلاثة كما يعتقد أكثر الناس وقد تكون اسماً لفروع من قبيلة نفوسة كما يرى الأستاذ الكعاك . وقد يكون مقتبساً من ميزاب الكعبة المشرفة كما عالل القطب رحمه الله . ولكننى غير مطمئن لهذه الفروض جميعاً ، فأنا أرجح بدون استناد إلى أدلة كافية أن كلمة ميزاب محرفة عن مصعب أو مصاب أو مضاب . وهذه الكلمات الثلاثة ترد كثيراً فى المصادر التى تتكلم عن تلك المنطقة أو عن الأشخاص الذين ينتسبون إليها ، مما يدل أن أصلها واحد . فأصل الكلمة فيما يبدو «مصعب» ثم حرفت إلى مصأب بإبدال حرف العين همزاً ـ وحروف الحلق عند البربر ينوب بعضها عن بعض فكثيراً ما ينطقون الخاء بدلا من الحاء والهمز بدلا من العين بل ربما كان حرف العين من أعسر الحروف نطقاً عليهم ولذلك فتجرى ألسنتهم بالهمز بدلا عنها[1] ثم سهلت الهمزة فقرئت الصاد ممدودة ، ثم أن هذه الصاد حرفت مرة أخرى فنطقها بعض ضاداً ونطقها بعض زايا لتقارب مخرجى الضاد والزاى .

وعلى كل فكلمة ميزاب هى المرحلة الأخيرة لمصعب . وشاع اليوم أن تنطق كلمة ميزاب بميم مكسورة يمدها البعض ولا يمدها آخرون . ولكن كثيراً من الناس ينطقونها مضمومة مما يدل أن أصلها : مصاب ، مصأب ،

---

(١) من ذلك أنهم يقولون (أبد الله) بدلا من عبد الله وكثير من الأعلام اشتهرت هكذا حتى ظن الناس أنها وضعت قصداً كذلك . ومنها نطقهم لفظة (أمى) بدلا عن عمى حتى ظن الناس أنها وضعت كذلك للدلالة على الاحترام والتعظيم .

مصعب . فكلمة ميزاب إذن هى كلمة مصعب ، وكلمة : بنو ميزاب تدل على ما كانت تدل عليه كلمة بنو مصعب ، غير أن بنى مصعب كانوا يمتلكون كامل البادية التى يطلق عليها أرض الشبكة فكانت تنسب إليهم ، ويقال لها بادية بنى مصعب بأوديتها الثلاثة وسلاسل مرتفعاتها وجبالها . أما تسمية اليوم بنسبة بنى مصعب إلى ميزاب واعتبار أن ميزاب اسم لأحد الأودية الثلاثة فهى تسمية تحاول أن تقصر أولئك القوم على بعض أجزاء باديتهم بينما تهمل الأجزاء الأخرى أو تنسبها لقبائل أخرى ، ولقد يكون اسم بنى ميزاب آخر ما أطلق على هذا الشعب الذى كان يسكن بلاد الشبكة أو بادية بنى مصعب ينطلق فيها طولا وعرضاً ، ثم انحصر فى المدة الأخيرة فى بعض أجزاء منها . ولا أستبعد أن يكون للاستعمار يد ـ ولو كانت خفية ـ فى تضييق المكان الذى يعتبر وطناً للميزابيين لاسيما حينما عجزت فرنسا عن استعماره وارتبطت معه بعهد حماية فإن من مصلحتها أن تضيق رقعة الحماية إلى أقصى حد ممكن ، ونحن نعلم أنها حاولت أكثر من مرة أن تنقض اتفاقية الحماية وأن تحتل تلك البلاد من جديد لتدخلها ضمن المستعمرات فلم يتسن لها ذلك أبداً وجرى بينهما كفاح سياسى مرير طويل لم ينته إلا بانتهاء الوجود الاستعمارى لفرنسا فى الجزائر وإفريقيا .

على أن مناقشة هذه التسمية بالنسبة للأودية الثلاثة المتوازية التى تقطع سلاسل من المرتفعات المتوازية حتى سميت الشبكة، أو للبادية المترامية الأطراف التى تحتضن تلك الأودية وتلك المرتفعات ، أو لوادى ميزاب الذى أطلق اسمه على كل أرض الشبكة اتباعاً للقاعدة ـ تسمية الكل باسم الجزء ـ لا ينبني عليها شىء البتة .

وإنما الذى أريد أن أتحدث عنه فى هذا الفصل إنما هم الميزابيون كشعب ذى خصائص ومميزات .

ومع احترامى الكبير للمؤرخين الكبيرين الكعاك ، ودبوز . ومع تقديرى لجهودهما العظيمة فى الأبحاث الطويلة والعميقة فى تاريخ الجزائر وسعة معارفهما بطبيعة البلاد والسكان ، إلا أننى أخالفهما فى بعض النقاط البسيطة فيما يتعلق بالميزابيين وسوف أوضح ما أذهب إليه فيما يلى :

قال القطب رحمه الله فى رسالته صفحة ٨٤ : « جرى تسمية أهل هذه القرى الخمس بل السبع ببنى مزاب بضم الميم وتخصيصهم بهذا الاسم » . وبعد سطور قال : « ثم إن أهل هذه القرى الخمس فقط يسمون بنى مصعب لأن بعضهم من ولد مصعب ولعله مصعب بن سدمان » . فالميزابيون اليوم هم إذن أحفاد سكان هذه البادية التى نسب إليهم وتسمت باسمهم ، بوديانها وهضابها ، وقد كانوا يسكنونها على حياة بدوية قوامها تربية الماشية وقليل من الزراعة الموسمية التى تعتمد على الأمطار . كما كانت تعيش كثير من القبائل البربرية فى تلك العهود . وكانوا يتنقلون فيها على ضفاف الأودية الثلاثة التى تربط باديتهم رباطاً يشبه الشبكة . فلما جاء الإسلام إلى الجزائر أسلم بنو مصعب كما أسلم غيرهم من الناس ، وسبقت إليهم أصول المعتزلة فاعتنقوها ، قليل منهم عن اقتناع وعلم . والكثير عن تبعية وتقليد .

وبقوا على ذلك[1] إلى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس حين

---

(١) عندما قرأت هذا الفصل على أستاذنا الشيخ عبد الرحمن باكلى حفظه الله قال : « يرجح أنه كان هناك إباضية فى العطف قبل مجىء محمد بن بكر من فلول تاهرت ويؤيد هذا أنه توجد مقبرة قديمة نظن أنها لبعض بنى رستم . » ولست مقتنعا بهذا الرأى لأن أهل هذه المنطقة كانوا على خصام متواصل مع الدولة الرستمية كما هو معروف وكما قرره القطب رحمه الله فمن المستبعد جداً أن يقصدهم فلول الدولة الرستمية عند نكبتهم لأن تلك الفلول إنما تلتجىء إلى من تثق بالسلامة والأمن معها وهؤلاء ليسوا معها حينئذ على سلام .

كان أبو عبد الله بن بكر تتنقل بين وادى أريغ ووارجلان بجموعه الهائلة من طلبة العلم كأنها الجيوش الجرارة ، وكان يعتمد لتمويل ذلك العدد الهائل من الطلبة على ماتنتجه تلك الواحات الكريمة من الغلال وما يخصصه أصحابها من مقادير ضخمة للإنفاق على طلاب العلم كما يعتمد على أعداد وافرة من الماشية يتخذ لها رعاة يتخيرهم من أصحاب الدين والأمانة ثم يسلمها إليهم ليتولوا رعايتها وتربيتها وعندما تجدب المراعى بسبب الجفاف فى نواحى أجلو وأريغ ووارجلان ـ وهذه البلاد كانت مضطرب الإمام ـ يدعو رعاته إلى انتجاع بادية بنى مصعب وقد يرافقها ليتأنس أصحاب الأرض ويحصل على موافقتهم وقد استطاع فى رحلاته تلك أن يتخذ منهم معارف وأصدقاء ، كما استطاع أن يتعرف على كامل تلك البادية تعرفاً كاملا ، ويعرف مواطن الخصب من أوديتها وجبالها ، وملاءمة كل جزء منها لأنواع الماشية على مدار السنة . ولمختلف الفصول .

وفى أوائل القرن الخامس توالى الجفاف على منطقة وارجلان وما جاورها عدداً من السنين وزحفت كثبان من الرمال على سدراتة وكانت بعض الأودية ـ التى تنساب تحت طبقات من الأرض حتى إذا وصلت إلى منطقة سدراتة ووارجلان نبعت على شكل عيون غزيرة المياه ـ قد تغيرت مجاريها فغارت تلك العيون النابعة منها . فضاقت الحياة بالناس لا سيما أصحاب الماشية . ودرس القوم موقفهم وكان الإمام أبو عبد الله من بينهم فلم يجدوا منتجعاً لإنقاذ ماشيتهم غير بادية بنى مصعب ، ولإيضاح هذه الصورة يسرنى أن أنقل للقارىء الكريم ما قاله شيخ الصحافة الجزائرية الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى فى رسالته المختصرة « الإباضية فى شمال إفريقيا » قال رحمه الله ما يلى :

« بعد فترة حوالى ٥٠ عاماً[1] ـ فيما أظن ـ من حلول فلول بنى رستم بوارجلان وقعت مجاعة كبيرة فى البلاد وأكلت الحرث والنسل ، وأحرقت الحدائق والبساتين حتى قيل إنها غورت أكثر من ألف عين ... إلخ إلخ .

وهناك التأم جمع من علماء وأعيان البلاد من أهل الرأى والصلاح وفيهم أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسى ـ اجتمعوا فى مكان ما ـ للمداولة فى إيجاد حل لهذه الأزمة التى تهدد بخراب البلاد ، وفناء العباد ، إذا بقيت كذلك بدون حل .

وبعد تقليب وجوه الرأى اتفقوا على إيجاد حل للقضية بالبحث عن متسع حيوى يأوى إليه الأجيال الآتية بأنفسهم ودينهم وخلقهم يكون لهم كأرز للدين والإسلام ، يأوون إليه ، كما تأوى الحية فى جحرها عند الخطر . وحيث سبقت للإمام معرفة ببادية بنى مصعب إذ كانت رعاة أغنامه ترتاد عين المكان للرعى والكلأ فى الربيع كما كانت رعاة الشيخ أبى عمار عبد الكافى ترتاد لرعى أغنامه جبال بنى راشد فى الشمال ، لأجل ذلك اتفق مؤتمرهم على ما يلى :

أولا : أن ينتدبوا الإمام أبا عبد الله للبحث عن هذه المهمة لخبرته بالمكان ولحكمته لمعالجة طباع أهله الشرسة .

ثانياً : تزويد الوفد بمؤنتهم لستة أشهر على حساب الجماعة .

قام الإمام بالمهمة وإن كانت كلفته خسارة ابنه العزيز إبراهيم إذ

---

(١) خرب العبيدون تهرت سنة ٢٩٦ وانتداب أبى عبد الله إلى ارتياد بادية بنى مصعب يكون فى أوائل القرن الخامس فإن أكثر المصادر التاريخية تذكر أن مدينته العطف بدأ تأسيسها سنة ٤٠٢ ولا شك أن مجيئه إليها كان بعد ذلك .

obeikandi.com

قتله سكان البلاد الأصليون لشراستهم ، وعداوتهم المزمنة للإباضية ولكن لم يثن ذلك من عزمه لاستصلاح البلاد . فهو بحكمته وصبره ألان من قسوة قلوبهم ، وكبح من جماحهم وشراستهم حتى شرح الله صدرهم للإسلام الحق . فنزل أولا فى العطف واتخذها مركزاً لعمله ، ومقامه هنالك موجود كتذكار حول ضفة الوادى إلى اليوم .

ثالثاً : أن يرافقه خادمه وابنه إبراهيم — فيما أظن .

انتهى المقصود من كلام شيخنا .

هكذا قرروا أن يتجهوا إلى بادية بنى مصعب فساروا بقطعان لاحصر لها من الإبل والأغنام ، وكان قد أعجفها القحط والجفاف . وحسب الاتفاق الذى عقده أهل الحل والعقد وأهل الماشية من انتداب أبى عبد الله صحبهما الإمام نفسه ورحب به القوم بعد جفاء ، وراق المقام فقد وجد المرعى الخصب لما معه من الأنعام ، والأسماع المرهفة والعقول النيرة لما يلقيه عليهم من دروس فأعجبهم منه الدين القيم والخلق السمح والتواضع الجم ، والعلم الغزير ، والصدر الفسيح الذى لا يضيق ، وتحلق عليه الشباب والشيب فتكونت النواة الأولى — لأول قرية ميزابية مستقرة[1] وكانت أخبار أبى عبد الله مع بنى مصعب تصل إلى أهل سدراتة ووارجلان تحدثهم عن

---

(١) يقول أستاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن : هناك عدداً من القرى فى هذا الوادى قبل مجىء محمد بن بكر ، وأن قرية العطف نفسها كانت موجودة قبل مجيئه والذى يبدو من مقارنات أقوال المؤرخين أنه كانت هناك بالفعل بعض المجموعات من المنازل — قبل أبى عبد الله — لا تبلغ أن تكون قرية وإنما تشبه أن تكون مشاتى لبعض الأسر يأوون إليها عند اشتداد البرد ويرتحلون منها بعد ذلك طوال السنة فهى ليست قرى أو مدنا بالمعنى المتعارف وإنما هى مقار ثابتة لأسر من قبائل بادية .

نجاح الرحلة وعن المدى الذى بلغت إليه الألفة بينهم . وكانوا قد تضرروا وضاقوا من توالى الجفاف وانحباس الغيث ونضوب المياه وزحف الرمال عليهم بفعل رياح الجنوب المستمرة حتى أصبحت الحيـــاة فى بعض تلك الأماكن عسيرة أو شبيهة بمستحيلة . ففكر بعضهم فى النجاة بماشيته ونفذ فكرته فطابت له النقلة والتحق بهم بعض من لم تكن لهم مواشى ولكنهم يحسنون الزراعة ففتحت لهم أرض الوادى صدرها عندما مدوا إليها أذرعهم القوية . ووجد أولئك المهاجرون الأول من سدراتة ووارجلان أن المصعبيين قد تأثروا بدروس أبى عبد الله فلانت طباعهم ، وسمحت نفوسهم واتسعت أخلاقهم فاستقبلوا المهاجرين إليهم بالترحاب والتكريم وامتزجوا بهم الامتزاج الكامل . وأضافوا إلى حياتهم البدوية نوعاً من حياة مستقرة كالتى كانت فى سدراتة ووارجلان ووادى أريغ .

وبدأوا يحفرون الآبار ، ويشتغلون بالزراعة ، ويبنون البيوت ، ويستقرون بأخلاطهم فى انسجام ووئام وتعاون ، وتسامع الإباضية فى كل مكان بهذا التغيير الذى وقع عند بنى مصعب وترحيبهم بالإمام وآثار الإمام فيهم فاشتدت الهجرة إليهم من كل الأماكن من سدراتة ووارجلان ووادى أريغ ، ومن الجنوب التونسى ومن جبل نفوسة ومن جميع البلدان أى : من أىّ مكان يجد فيه الإباضية كيداً بسبب الضغط السياسى ، والضيق العنصرى ، أو الاحتياج الاقتصادى .

وكانت الهجرة غالباً ما تتم إلى وارجلان لشهرتها عند الإباضية فى ذلك الحين ومنها ينتقلون إلى إخوانهم فى بنى مصعب .

اعتنق بنو مصعب المذهب الإباضى على يد الإمام أبى عبد الله فى

أوائل القرن الخامس وورد إليهم كثير من إخوانهم من البلدان الأخرى لا سيما واحات الجنوب الشرقى من الجزائر والجنوب الغربى من تونس وعائلات من المغرب ومن بعض المدن المختلفة فى الجزائر كقسطنطينية وبسكرة ومن جربة والجبل . وانصهر أولئك فى مختلف البلاد والجهات ومن ضمنهم بعض الرستميين الذين كانوا فى سدراتة ـ من السكان الأصليين أى (بنى مصعب) وذابوا فيهم وتكوّن من الجميع شعب ذو سمات وخصائص واضحة فيه . غير متكاملة فى غيره .

ومنذ بدأ يتكون تكوينه الجديد من حيث اعتناق المذهب واستيعابه للمهاجرين الجدد بدأ يتجه ـ بعناصره المختلفة ـ إلى تغيير جذرى فى حياته الاقتصادية . وبعد أن كان شعباً يعيش عيشة البداة يتنقل بين المراعى . صار شعباً زراعياً مستقراً يبنى الحياة الكريمة فى مدن كريمة معتمداً على استغلال خيرات الأرض بكل ما يملك من علم وجهد . ولما تغيرت ظروف الحياة ، وأصبحت الزراعة وحدها لا تكفى لبناء اقتصاد سليم . غير ميدان كفاحه الاقتصادى فانطلق وراء التجارة[1] وبلغ فيها ما لم يبلغه غيره من جيرانه . وفى هذا العصر لما بدأت الحياة تتغير ، وموازين الاقتصاد تتحول . بدأ هذا الشعب يتجه فى اقتصاده اتجاهاً جديداً . وأصبح لا يقصر اعتماده على التجارة كما كان من قبل وإنما صار يعتمد على الصناعة ويعود إلى الزراعة . . الزراعة الواعية ـ من جديد ـ حتى يتمكن من بناء اقتصاده على أساس ثابت مدروس قد خطط له عن علم وخبرة ودراية . وبعد كل هذا فاحسب أنه من

---

(١) تولدت عن ممارسة التجارة فى ديار الغربة مشاكل اجتماعية اتخذت لها حلول لم تعرف لأى شعب غيره سوف نعرض لها بايجاز فى فصل خاص .

الخطأ أن نقول إن الميزابيين هم بقايا الرستميين هاجروا من تاهرت إلى سدراتة ثم إلى الوادى على تلك الصورة المتميزة التى صورها الأستاذ دبوز كما أنه من الخطأ أن نقول إنهم قوم من قبيلة نفوسة جاءوا تحت قيادة يعقوب بن أفلح إلى وادى (مية) جنوب وارجلان ولنشاطهم كوّنوا هناك بلاداً خصبة فتخوّف منهم أو حسدهم بنو وارجلان فأجلوهم عن تلك البلاد فالتحقوا بوادى ميزاب فتكوّن منهم هذا الشعب الذى نتحدث عنه. وهاتان الصورتان — كما ترى يلعب فيهما الخيال دوراً هاماً . ويكفى أن تعلم أن يعقوب عندما هاجر من تاهرت لم يهاجر برسم قيادة ، وإنما هاجر خائفاً فاراً بأهله أو بعض أقاربه . وكتب التاريخ حين تصف هجرته تعبر بدقة عن تلك الحالة . وأكثر كتب التاريخ تذكر أن يعقوب عند فراره من تاهرت والتجائه إلى وارجلان وكانت فرق من الجيش العبيدى تطارده كان يقف لها وحده يشاغلها حتى يبتعد رفاقه ثم يلتحق برفاقه فإذا لاحقتهم فرق جيش العبيديين اعترضها منفرداً وشاغلها حتى يبتعد صحبه حتى نجوا . فلو كانت الصورة كما رسمها الأستاذ الكعاك (قوم من نفوسة جاءوا تحت قيادة يعقوب) لما اضطر أن يشاغل العدو وحده طول الطريق ولكان من الحكمة أن يساعده بعضهم على الأقل ليكونوا أرهب فى عين العدو . .

على أن العبارة الدقيقة التى حددت المعنى قد تكررت عند الدرجينى على صور فتأملها فيما يلى: « ثم إن يعقوب ابن الإمام وابنة أخيه دوسرا[1]،

---

(١) تقول كتب التاريخ أن دوسرا هى إحدى بنات الإمام أبى حاتم وكانت من الجمال بمرتبة عالية فلما اغتال أثناء اليقظان أباها صممت لى الأخذ بثأره مهما كانت الظروف فذهبت مع أخ لها إلى الحجانى وطلبت منه الانتقام من اليقظان ووعدته إن فعل أن تتزوج به فلما فعل خافت أن يطالبها بوعدها . ففرت مع عمها يعقوب وبحث عنها الحجانى بالحاح فلم يقع لها على أثر .

خرجا فى خفاء إلى جهة وارجلان حتى نزلاها » . ويقول فى مكان ثان : « وخرجوا فى خفاء خوفاً مما ينالهم من عدوهم » . ويقول فى مكان آخر : « فأقبل بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان ». أضف إلى كل هذا ما جاء فى الكتاب نفسه فى موضع آخر : « قال لأصحابه إنكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر إلا كان عليهم الطلب . افترقوا » .

أظن أن هذا ينسف كل الصور التى كانت ترسمها بعض الأقلام بأن مجموعات كبيرة إما من الرستميين أو نفوسة بقيادة يعقوب قصدت وارجلان ثم استوطنت سدراتة إلى آخر الصورة السابقة ويتضح منها جميعاً أن إباضية تاهرت عندما احتلها أبو عبد الله الحجانى وارتكب فيها الأفاعيل فر من نجا منهم إلى أى مكان يظن فيه النجاة أو الحماية دون توجيه من أحد أو قيادة أو تنظيم وأن يعقوب بن أفلح اتجه بأهله وابنة أخيه إلى وارجلان فلما رأى أن بعض الفلول تنضم إليه خاف أن يكون فى ثقل يتعثر فى تنقله ويعجز هو عن الإسراع به إلى مكان النجاة وهو فى حالته تلك لا يستطيع حمايته فأمرهم بالتفرق وفعلا تفرقوا عنه فلم يكن معه عندما بلغ إلى وارجلان أحد غير أهله كما نص على ذلك أبو العباس الدرجينى بقوله فيما نقلناه عنه سابقاً وتأمل إن شئت قوله: « فأقبل بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان».

ومعنى هذا أن بقية الإباضية الذين نجوا من القتل فى تاهرت قد تفرقوا إلى جهات مختلفة وربما التحق بعضهم بوارجلان فى مجموعات كبيرة أو صغيرة قبل أو بعد يعقوب بن أفلح ولعل بعضهم نزل مدناً أخرى أو جهات أخرى ثم بدا له فاتجه إلى وارجلان ، هذه كلها احتمالات لا نستطيع إثباتها ولا دفعها .

وأحسب أننا ننتهي من هذا الحديث الذى طال أكثر مما ينبغى له إلى أن الميزابيين هم السكان الأصليون والمالكون الحقيقيون لبادية بنى مصعب بما فيها من هضاب ووديان وسهول، وبما يرعى عليها من ضباب وظباء ووعول . فإذا كانت قد وردت عليهم طوائف من الناس ، أفراداً أو أسراً ، طلباً للحياة الكريمة ، أو فراراً من الظلم أو الاضطهاد ، فإن تلك الطوائف قد دخلت بينهم ،وانصهرت فيهم وذابت فى مجموعهم. ولا يغير من هذه الحقيقة أن بعض تلك الطوائف أو الأسر أو الأفراد لا يزالون يذكرون مواطن أجدادهم التى هاجروا منها . أو أنهم لا يزالون يحتفظون بأسمائهم وألقابهم قبل أن يستوطنوا هذه البلاد الكريمة .

ومهما راجعت المصادر التى بين يدى . وفكرت فى أصل الميزابيين فلست أؤيد أبداً أولئك الذين يقولون إن الميزابيين هم بقايا تاهرت بعد أن خربها العبيديون هاجروا إلى سدراتة ، وبقوا فيها متميزين عن غيرهم ثم إنهم هاجروا إلى وادى ميزاب فتكوّن منهم هذا الشعب الذى نتحدث اليوم عنه فى اعتزاز لمحافظته على نقاء الإسلام ولسيره على منهج المسلمين فى خير القرون . لا لانحداره من دماء ملكية ، ولا لانتسابه إلى ارتفعات طبقية وكل ما يقال فى هذا الموضوع إن بقايا تاهرت من الرستميين ـ وهم قليل جداً ـ وغيرهم هاجر بعضهم تحت ضغط عوامل اقتصادية محضة فى أزمنة متفاوتة إلى بنى مصعب فكانوا ضمن العناصر التى انصهرت وذابت فيهم وتكوّن منهم جميعاً هذا الشعب الذى كان يسمى إلى مدى قريب « بنى مصعب » وأصبح اليوم يسمى بنى ميزاب وهكذا انتهت لتلك الصورة التى وضعها الأستاذ محمد على دبوز فى قوله : « كان الميزابيون إلى آخر القرن الثالث الهجرى فى شمال الجزائر وفى نواح أخرى من المغرب الأدنى والأقصى

فهم الذين أنشأوا فى الجزائر أول دولة إسلامية مستقلة » ثم يستمر فى رسم الصورة فيهاجر بهم إلى وارجلان ثم إلى سدراتة ثم إلى وادى ميزاب . ولعل المحاة التى تمسح ظلال هذه الصورة ولا تترك منها إلا الوقائع الحقيقية هى قول محمد على دبوز نفسه فى نفس الكتاب ص ١٥٩ :

« وكانت هذه النواحى الميزابية وطناً لقوم من زناتة القبيلة البربرية المشهورة استوطنوه منذ زمن بعيد فنسب إليهم ، وكان هؤلاء الزناتيون مبثثين فى مكان المدن الخمس ، قد نصبوا فيه خيامهم وبنوا فى نواحيه بعض قرى بسيطة يسكنونها ومن تلك القرى العطف التى لا تزال فيها آثارهم إلى اليوم . وكان هؤلاء الزناتيون على مذهب المعتزلة » وبعد سطور يقول : « فاندمجوا فى إخوانهم الميزابيين الذين هاجروا إليهم وامتزجوا بهم وصاروا شعباً واحداً تربط بينهم الدماء الممتزجة ودين الله القويم » .

ويبقى لنا هنا سؤال معلق يحتاج إلى جواب وهو اسم (الميزابيين) هل هو اسم لمجموعة من الناس كانوا معروفين به فى شمال الجزائر ثم هاجروا ـ وهم محتفظون به ـ إلى وارجلان وسدراتة ثم انتقلوا به إلى أودية زناتة فاندمجوا مع سكانها وغلب اسمهم على الجميع فسموا به كما يظهر مما قاله محمد على دبوز . أم أن أولئك المهاجرين من شمال الجزائر ومن غيره إنما جاءوا يحملون أسماء أسرهم وأطلق عليهم الأكثر وأنهم عندما دخلوا هذه المنطقة انصهروا فى سكانها وقبائلهم على اسمها على ما أوضحناه فى أول هذا الفصل .

أما أنا فأحسب أن اسم الميزابيين لم يعرفه الشمال إلا فى هذه العصور المتأخرة عندما انفتحت أبواب التجارة لسكان بادية بنى مصعب فانطلقوا إلى أغلب مدن الشمال حيث تحكمت أصابعهم المرنة فى أغلب المقاييس والموازين والمكاييل .

ملاحظة :

بعد الانتهاء من كتابة هـذا الفصل بسنوات اطلعت على جواب الأستاذ الفاضل الإمام بيوض إبراهيم أجاب فيه عن سؤال وجه إليه عن حقيقة النسبة إلى ميزاب وماذا تعنى هذه الـكلمة وقد حلل الموضوع تحليلا كافياً فى إيجاز بليغ . وعندما اطلعت عليه خطر لى فى بادىء الأمر أن أنشره فى هذا المـكان مستغنياً به عن هذا الفصل ثم عدلت عن هذا الرأى وقررت أن أنشره بنصه بعد هذا الفصل حرصاً على فائدة القارىء .

obeikandl.com

من هم بنو ميزاب[1]

تسألون عن انتساب إباضية القطر الجزائرى إلى ميزاب ، وهل النسبة إلى جد ، أو إمام ، أو مذهب ، أو كرامة ، أو وطن ، وتطلبون شرح هذا وتفصيله . . الجواب :

مما حفظناه وطالعناه وتحققناه قديماً إذ ليس لنا سعة من الوقت للمراجعة والبحث .

إن النسبة إلى الوطن والوادى وليس فى كلمة (ميزاب) ما يمت بنسب أو سبب إلى إمام ، أو كرامة ، أو جد ، أو مذهب ، أو وطن . فدونكم البيان : تعرف هـــذه الجبال المحيطة بقرى ميزاب فى التاريخ بجبال (بنى مصعب) ويعرف الوادى الذى عمرت عليه القرى بوادى « مصاب » فى التاريخ وبهذا أسماه المؤرخ الشهير ابن خلدون . ومصعب ومصاب واحد فيما ترى . وإنما الفرق بين نطق العرب والبربر . وإفريقيا بعد حملة بنى هلال ـ كما تعلمون ـ أو بعد الفتح الإسلامى على الأصح عمرت بالعرب الذين زاحموا البربر الأصليين فى كل بقعة من أرض إفريقيـــا ، ومن البربر من لا يستطيع النطق بالعين محققة ، وإنما ينطق بها همزة وقد يسهلها إلى الألف . فإذا قال العربى مصعب قال البربرى مصأب ولكم على هذا أدلة قاطعة من نطق الأعاجم لهذا الحرف ولغيره من حروف الحلق . وحتى الكتابة فإن حرف العين ساقط عندهم . فلا يكتبون مسعد اليوم إلا مسأد . ثم أن تقارب

---

(١) هذا جواب أستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم مد الله فى عمره ومتعه بالصحة والعافية لبعض من سأله عن الموضوع .

مخارج الصاد والزاى والضاد من جهة ، وتعدد اللهجات والألسنة من جهة أخرى ، وتقادم العهد من جهة ثالثة ، وكتابة المؤرخين للأسماء بحسب اللهجات التى نقلوا عنها ، وفيهم العربى والبربرى والإفرنجى من جهة رابعة أوجبت اختلاف اللغات فى النطق لهذا الحرف فقالوا ميزاب — مزاب — مضاب — مصاب — مصعب . وأصل الكلمة واحد غير متعدد ، هو اسم لهذا الوادى وللجبال المحيطة به ، وتستطيعون أن تجدوا لهذا عشرات من الأمثلة فى أسماء المدن والأودية والجبال والأشخاص . إذا كتبت بأصل عربى كتبت بصيغة ، وإذا نقلت عن أصل إفرنجى كتبت بصيغة أخرى حتى تستغلق ولا تفهم فى كثير من الأحيان ، وحتى تنقطع الصلة بينها وبين أصلها وقد حضرتنى عشرات وعشرات من الأمثلة لولا ضيق الوقت لذكرتها . وخذوا على سبيل المثال اسم مدينة (وهران) إذا نقلت عن الفرنسية كانت (أوران) و (تيارت) كان فى القديم (تاهرت) ثم حرفت إلى (تيهرت) ولا يستطيع الإفرنجى أن ينطق بهذا الحرف إلا (تيارت) إذ يضطر إلى قلب الهاء همزة مسهلة بعد ياء ، وكثيراً ما انتقد العلماء على بعض كتاب الشرق الذين يجهلون كثيراً من المدن الإسلامية والأقطار العربية . فإذا كتبوا عنها نقلوا أسماءها عن مؤرخى الأوروبيين فجاءت محرفة لا تدل على مسماها .

وليس للإباضية جد ولا إمام مسمى بهذا حتى تكون النسبة إليه . وأما دلالة لفظ (ميزابى) اليوم على (إباضى) فإنما جاءت من كون الذين عمروا هذا الوطن من زمن قديم إباضية المذهب . ولم يزالوا هم الأغلبية الساحقة فيه إلى الآن ، وحكام الوطن منهم وأموره بأيديهم فأصبحت كلمة (ميزابى) مرادفة فى العرف العام لكلمة (إباضى) ونظير ذلك كلمة

فارسى اليوم فإنها كادت تكون مرادفة لكلمة شيعى لأن مذهب الفرس التشيع . وقديماً كانت كلمة المغربى ترادف كلمة « مالكى » لغلبة مذهب مالك على المغرب .

نعم إن بعضاً يزعم أن كلمة (ميزابى) نسبة إلى ميزاب الرحمة فى الكعبة الذى قطرت منه قطرات ماء فى يوم مشرق الشمس سماؤه صافية الأديم ليس فيها قزعة سحاب ، على أحد أئمة الإباضية أبى بلال مرداس استجابة لدعوته ، وأمارة على هداه ، وصدق دعواه ، فى قصة مشهورة .

والخبر إن كان صحيحاً فى نفسه لعدالة رواته وثقتهم ونزاهتهم عن الكذب لكن دعوى نسبة (ميزابى) إليه باطلة قطعاً فإنها لم تعرف فى القديم ، ولو كانت صحيحة لكان أولى الناس بها إباضية المشرق ، وإباضية الصدر الأول ، وما نعرف أن إباضية عمان والبحرين واليمن وزنجبار والجبل وجربة ووادى أريغ ، ووارجلان انتسبوا لهذا قط ، فالدعوى باطلة .

هذا ما حضرنى للجواب عن سؤالكم وأرجو إنى وفقت فيه وأذكر أن الشيخ أطفيش رحمه الله قد تكلم فى القسمية كثيراً ولكنى لا أذكر الآن موضوعه .

العهود التاريخية لبنى مصعب

أحسب أننى أوضحت ـ بما فيه الكفاية ـ فى الفصول السابقة أن الكلمات: وادى ميزاب ،أرض الشبكة ،بادية بنى مصعب . هى أسماء مترادفة لإقليم واحد ، كان يسكنه فى مبدأ الفتح الإسلامى شعب يسمى بنى مصعب ثم هاجر إلى هذا الإقليم ـ فى مختلف أدوار التاريخ الإسلامى ـ أعداد من الناس اندمجوا به ،وانصهروا فيه ـ وتكوّن منهم جميعاً شعب كريم عزيز أصبح يسمى الشعب الميزابى أو بنى ميزاب .

إن كلمة بنى مصعب تحرفت إلى كلمة بنى مصأب ، بقلب حرف العين الحلقية إلى همز ، ثم جرى تسهيل الهمز فقيل مصاب ، ثم تحرفت الصاد إلى ضاد لقرب المخارج ثم بعد ذلك أصبح الضاد ينطق زايا لقرب المخارج ولخفتها، والقارىء الكريم إذا تصفح كتب التاريخ والسير بل وكتب الفقه يجد أن بعضها تستعمل كلمة بنى مصعب أو مصاب أو مضاب . ولا تستعمل ميزاب أو مُزاب إلا فى هذه العصور المتأخرة ، وأنها حين تنسب إليه تقول المصعبى .

وبناء على هذه الحقيقة فإن الشعب الميزابى الكريم هو الشعب الذى تكوّن من بنى مصعب ومن انضم إليهم وانصهر فيهم منذ الفتح الإسلامى حتى الآن .

فإذا أردنا أن نتحدث عن تاريخ هذا الشعب فى المدى الممتد بين الفتح الإسلامى والعصر الحاضر . فإننا نستطيع أن نقسمه إلى ثلاثة عهود متميزة

بعضها عن بعض . وأن كل عهد من تلك العهود يشتمل على عدد من الفترات التاريخية التى تربط بينها روابط من الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والحركات العمرانية والنشاطات العلمية والثقافية والسمات الدينية والسلوكية ، وإن كانت تفصل بينها أحـــداث سياسية ، أو مظاهر اجتماعية فصلا غير سميك .

ولعلى فى هذا الفصل أستطيع أن أعرض - بإيجاز - صوراً لـكل عهد من تلك العهود بما يتميز به من مظاهر وظواهر تجعله يكوِّن وحدة زمنية واضحة المعالم فى عباب التاريخ الطويل .

obeikandl.com

العهـــد الأول

العهد الأول لبنى مصعب فى التاريخ الإسلامى يبتدىء من الفتح الإسلامى لتلك المنطقة فيما بين سنة خمسين وستين للهجرة تقريباً ، ويمتد إلى نهاية القرن الرابع أو بعده بقليل حين ورود أبى عبد الله إلى تلك المنطقة والبدء فى تطبيق نظام العزابة . ويمتاز هذا العهد بأن سكان أرض الشبكة قد اعتنقوا الإسلام ببساطة ، ثم سبقت إليهم آراء المعتزلة فى الأصول والفروع فأخذوا بها ، وطبقوها على أنفسهم فى حرص شديد . وحافظوا على نظام حياتهم كشعب يعتمد على تربية الماشى بالدرجة الأولى ، وعلى الزراعة الموسمية بالدرجة الثانية . وربما كانت المرأة عندهم تشتغل بصناعة الفليجة[1] كما هى عادة أغلب نساء البادية وحاولوا أن يحتفظوا بما عندهم وأن ينعزلوا عن غيرهم ، محافظة على شخصيتهم الخاصة فى دينها وخلقها وتفكيرها واقتصادها ، وهم يدافعون بحماس شديد كل من يخشون منه التأثير على اقتصادهم أو حرية مواطنهم المترامية . أو على آرائهم الدينية ويمكن لنا أن نقسم هذا العهد إلى ثلاث فترات قصيرة متقاربة متشابهة فى أغلب الأشياء متخالفة فى أخرى .

١ — الفترة الأولى : تمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان أى من الفتح الإسلامى فى الستينات تقريباً إلى تكوّن الدولة الرستمية سنة ١٦٠ هـ

---

(١) الفليجة هى شقة الخباء . والأخبية أو بيوت الشعر مصنوعة من عدد من الفلائج والفلائج تصنع من شعر الماعز مخلوطا بوبر الإبل والبدويات غالبا ماهرات فى الصناعات المتخذة من الشعر والوبر . أما الصوف فلا يهتممن به ولا يجدن صنعه ولذلك فهو يجلب إلى أسواق الحضر فيباع فيه .

تقريباً وقد كان المصمودون سكان أرض الشبكة فى هذه الفترة ، قد آمنوا بالإسلام وتقبلوه ، واطمأنوا إليه واستمسكوا به فى حرص شديد . ومع أن هذه الفترة كانت فترة مدّ وجزر بالنسبة للفتوح الإسلامية فى المغرب الإسلامى الكبير ، وكانت فترة حروب بين المسلمين الفاتحين وبين غيرهم من أصحاب الديانات الباطلة أو المرتدين ممن أسلموا قبل ذلك . إلا أن هذه الأحوال لم يرد لها ذكر فى أرض الشبكة أو بادية بنى مصعب مما يدل أن سكان تلك المنطقة حين آمنوا بالإسلام ، قد اقتنعوا به واستقر فى قلوبهم فلم تجتذبهم الدعاية المضادة له ، ولم تؤثر عليهم مساعى طلاب الزعامة فلم يشاركوا البلاد المجاورة لهم فيما يصدر عنهم من شغب ، ولم يستجيبوا لطلاب الزعامة فيما يحدثونه من قلاقل واضطرابات . وفى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى من الهجرة بدأت تتكوّن الآراء المذهبية ويتميز بعضها عن بعض ، وبدأ يحتدم حولها النقاش والجدل ، وبدأت تنشأ المذاهب الكلامية والفقهية ، وكان حملة الآراء والعقائد لا يقلون نشاطاً عن زعماء السياسة فكانوا يجوبون البلاد يدعون الناس إلى ما يرون ويعتقدون ، وكان المعتزلة من أشد فرق المسلمين نشاطاً وأكثرهم حركة فسبقت آراؤهم إلى هذه المنطقة فتقبلها أهلها واعتنقوها بعضهم عن اقتناع ، وبعضهم عن تقليد . وكانوا متأثرين بالحركة العامة للمعتزلة الذين كانوا منتشرين فى ذلك الحين فى أغلب القطر الجزائرى ، وكانوا يصاولون ـ فى قوة وعنف غيرهم من أتباع المذاهب الأخرى . غير أن الموقف لا سيما عند بنى مصعب لم يخرج عن مجال الكلمة والدعوة . فاستمرت حياتهم هادئة فى كامل هذه الفترة .

٢ ـ الفترة الثانية : تمتد هذه الفترة قرابة قرن ونصف إذ تبتدىء بعد منتصف القرن الثانى وتستمر إلى نهاية القرن الثالث وذلك أن المعتزلة عموماً

وأهل هذه البادية من أتباعهم ، قد رأوا أن للمذاهب الإسلامية الأخرى التى تخالفهم فى الأصول والفروع دعاة لهم فى الحركات والنشاط ما جمع عليهم أعداد كبيرة من الأتباع . وأنهم بدأوا يكوّنون لأنفسهم دولا ، ويركزون مذاهبهم على حكم وسلطان وأن التعصب الآخر منها بصدد التكوين . وبدا لهم أن تلك الدول تبحث على السلطة وأنها قد تحاول السيطرة على بعض البلاد وتعمل للتحكم فيها فكتلوا أنفسهم ، وتحفزوا للعمل ، واستعدوا للدفاع أو حتى للهجوم إذا اقتضى الأمر . ونشأت بالفعل من حولهم ثلاث دول قوية لم يكن لإحداها علاقة بالمعتزلة . فقد نشأت الدولة الرستمية سنة ١٦٠ هـ ونشأت الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ . ونشأت الدولة الأغلبية سنة ١٨٤ هـ وكان لكل دولة من هذه الدول نفوذ على بعض جهات الجزائر . ورغم أن المعتزلة فى هذه الفترة بالذات كانوا على أشد ما يكونون من الانتشار فى الجزائر وعلى أشد ما يكون من الدعوة لمذهبهم إلا أنهم لم يتمكنوا أن يتغلبوا على جهة أو أن يستقلوا بها فلم تنشأ لهم هنا دولة . واستمروا فى صراعهم مع المذاهب الأخرى أحياناً باللسان وأحياناً بالسنان . ولما كان معتزلة هذه البادية مرتبطين مذهبياً مع الأعداد الوفيرة من المعتزلة الذين يحيطون بالدولة الرستمية والذين كانت علاقتهم تتراوح بين الجدل فى المجامع والمساجد وبين القتال والحرب فى ميادين النضال تبعاً لإحساس المعتزلة أنفسهم بما هم عليه من قوة وضعف . وكان لهذا الموقف لمعتزلة الشمال أثره البالغ على سكان بادية بنى مصعب . وذلك أن إخوتهم فى المذهب من أهل الشمال لا يفتأون يحذرونهم من أن المذهب الإباضى يكاد يعم المنطقة . وأن دعاته لا يلبثون أن يدخلوا بين صفوفهم .

ونتيجة للمخاوف التى كان يصورها ويبالغ فى تصويرها دعاة المعتزلة

ـ تحذيراً من الإباضية ومن الدولة الرستمية بالذات . فقد تكوّن رد فعل عنيف عند بنى مصعب ، واستعداد قوى لمجابهة هذا المذهب وأصحابه ، ومحاربة أتباعه ودولتهم إن اقتضى الأمر .

وكما تتكوّن آراء الشعوب ـ دائماً ـ فى الاندفاعات الأولى حسب أهواء الزعماء والقادة والدعاة . وكما يصورون لهم غيرهم من الشعوب وما هم عليه من الآراء والمبادىء . وكما يلقون فى روعهم أن مخالفيهم معادون لهم ومضادون أو مزاحمون . دون معرفة حقيقية أو تجربة واقعية ، فقد استقر فى أذهان بنى مصعب ـ وهم معتزلة ـ أن الإباضية ـ وهم مخالفون فى المذهب ـ أعداء لهم وخصوم . وأنه يجب الاحتراز منهم ، والبعد عنهم ومحاربتهم إذا دعت الدواعى . وعندما كانت تقع المناوشات بين معتزلة الشمال والدولة الرستمية كان بنو مصعب يحسون بالخطر ، ويقفون على أهبة الدفاع . وقد يذهبون لنجدة إخوانهم بما يتيسر لهم من مساعدة مادية أو معنوية[1] .

ومضت هذه الفترة كاملة على المعتزلة عموماً وعلى بنى مصعب خصوصاً وهم إما فى محاربة فعلية مع بعض الدول القائمة وإما فى استعداد أو توقع لحرب . ويبدو مما يفهم من النقف القليلة التى وردت على ألسنة بعض المؤرخين أن مواقف بنى مصعب كانت فى أغلبها موجهة ضد الدولة الرستمية ، فهم لا يخشون غيرها ولا يهتمون بسواها ولا يطمعون ـ حسبما يلقى إليهم ويصور لهم ـ فى غير احتلال مكانها والسيادة بدلها ولذلك فهم معها على عداء

(١) قال القطب رحمه الله فى رسالته صفحة ٣٨ مايلى « وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول ، بل كانوا معتزلة يسافرون إلى تيهرت لقتال الإباضية وكانت المعتزلة أقوياء فى هذا المغرب » .

مستمر . إما قتال ، وإما مناصرة لمن يحاربها ، وينقم عليها ، ومساعدة له ولو بالمال والرأى . وإما تحفز واستعداد . فعاشوا قرناً ونصف قرن . فى قلق واضطراب وحرب أعصاب .

وأثّر هذا الموقف التحفزى عليهم تأثيراً كبيراً . فتضاءل اهتمامهم بالجانب العلمى . واختفت من مجتمعاتهم تلك المجالس الصاخبة التى يثور فيها الجدل ويكثر الأخذ والرد فى بعض مسائل العقائد وتناقص عدد العلماء وطلبة العلم . وأصبحت العلوم الدينية عندهم ـ سواء فى أصول الفقه وفروعه ـ عبارة عن معلومات محفوظة حفظاً لفظياً تنقل جافة على صورة ميتة ، فيها كثير من التحريف والتشويه . وفى نهاية الفترة ضعف فيهم الاهتمام العلمى والحرص على الثقافة ولم يبق لهم إلا كيان اقتصادى يبنى على تربية الماشية والزراعة الموسمية فرجعوا إلى حياة بدوية تختفى منها جميع صور الحضارة .

ويبدو أن الصراع الحاد الذى عاش عليه المعتزلة طيلة هذه الفترة قد أثّر عليهم عموماً فتضاءلت مواقفهم فى جميع أنحاء المغرب الإسلامى ولم يعد لهم وجود ملموس .

وفى نهاية هذه الفترة قد انقرضت الدول الثلاث التى أشرنا إليها سابقاً فقد اكتسحتها جميعاً الدولة العبيدية فى نهاية القرن الثالث الهجرى . واختفى أيضاً الوجود الظاهرى لفرق المعتزلة كالواصلية التى كادت أن تكتسح فى مبدأ أمرها بعض دول الجزائر عقائدياً وعسكرياً وحتى حسبت لها الدولة الرستمية كل حساب ، فاستنجدت استعداداً للمجابهة واللقاء على ميدان الجدال أو ميدان القتال . بعلماء وفرسان جبل نفوسة .

وهكذا تنتهى الفترة الثانية ببني مصعب بدورة حول أنفسهم وترجع

بهم إلى مبدأ الحياة التى كانوا عليها عندما بلغهم الإسلام ما عدا أنهم الآن فى نهاية الفترة يتشرفون بالإسلام وينتمون إلى خير أمة أخرجت للناس .

٣ ـ الفترة الثالثة : تمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان أى من أواخر القرن الثالث عند انقراض الدولة الرستمية . إلى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس عند دخول أبى عبد الله بن بكر إلى بادية بنى مصعب .

فى أول هذه الفترة قد اختفت الدولة الرستمية التى كان بنو مصعب يناصبونها العداء كما اختفت الدول المجاورة لها فى نفس الفترة ، وخضع الشمال كله بما فيه من مبادىء وعقائد ومفارقات ودول لسلطة واحدة هى سلطة الدولة العبيدية وبذلك بدا لبنى مصعب أن الشمال قد انفصل عن الجنوب انفصالاً كاملاً فأصبح معتزلة الشمال وإباضيتهم خاضعين لحكم واحد هو حكم الدولة الفاطمية وانعدم الرباط الذى كان يربط الشمال بالجنوب . أما إباضية الجنوب فأصبحوا هم الآخرون فى مستوى معتزلته لا تحميهم دولة ولا يلوذون بسلطان .

فنزعوا إلى موادعة الإباضية ، وأمنوا فى حياتهم واطمأنوا وانطفأت حرارتهم ، وفقدوا فى نفوسهم دوافع الحرب للدفاع أو للهجوم وتركوا الاستعداد والإعداد له . ومالوا إلى حياة بدوية مستقرة .

ولعل أهم ما تمتاز به هذه الفترة الثالثة من حياة الميزابيين الذين لا يزالون إلى ذلك الحين مصعبيين على مذهب المعتزلة إنما هو الاطمئنان والاستقرار والهدوء والحياة الرتيبة والانصراف عن مجالس العلم والحرب ، إلى تربية الماشية ورعايتها فى البادية الفسيحة وأوديتها الطويلة المتعرجة الخصبة . وإلى

تكوين علاقات جديدة — وإن كانت محدودة — مع مجاوريهم من المناطق الأخرى فيما تقتضيه طبيعة تربية الماشية من ضرورة تتبع مواقع الغيث هنا وهناك ، ولا شك أن الأمطار قد تجود فى باديتهم وتقل عند جيرانهم فيضطر أولئك الجيران أن يلتمسوا عندهم المرعى بأسلوب من الأساليب وقد تنعكس القضية فيجدبون هم وتخصب بلاد جيرانهم فيضطرونهم إلى التماس المرعى عند أولئك الجيران بطريقة من الطرق . ولعل مما سهل ذلك عليهم أن جيرانهم من أصحاب الوادى والواحات قد بقوا غير تابعين للدولة من الدول فهم يعيشون فى نفس الظروف السياسية فلم يكن أحد منهم يخشى الآخر . أو يتوقع غزوه . فانصرف كل منهم إلى حياته الخاصة يعالجها على حسب ما اعتاد وعرف من وسائل الحياة .

ولما كانت بادية بنى مصعب فسيحة ، وكانت أوديتها خصبة صالحة للمرعى فى معظم شهور السنة وكانت الأمطار فى أغلب السنوات إما أن تنزل عليها كلها فتخصب أو تنزل على بعض جهاتها ، أو على أقل تقدير على رؤوس أوديتها فتسيل وتتكون فيها المراعى فإن بعض جيرانها لاسيما من الجهات الغربية وأصحاب الواحات كانوا يحتاجون إليها أكثر مما تحتاج هى إليهم ، فكانوا ينتجعونها فى مواسم الخصب ويعودون إلى مواطنهم . وكان هذا الاتصال بينهم يسبب تعارفاً وتعاوناً فى بعض الأحيان كما يسبب شغباً ونزاعاً فى أحيان أخرى تبعاً لاتساع الخصب والجدب ، وكثرة الأمطار وقلتها فى هذه الجهة أو تلك .

وفى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس كان محمد بن بكر بنظامه الاجتماعي الفريد ، وتلاميذه الكثيرين ، ومدرسته المتنقلة ، ومواشيه ..

الواقرة ، ينتقل بين أودية أجلو وأريغ ووارجلان ، وكان أحياناً ينتجع بادية بنى مصعب . فيصيب منها و مرد ، فتكوّنت بينه وبين بنى مصعب معرفة لم تلبث أن تطورت إلى مردة حتى دفعته سنوات الجفاف إلى الانتقال إليهم ، والسكنى بينهم فى مدينة المطف التى يرجح أكثر المؤرخين أنها تأسست سنة ٤٠٢ ، ويرى بعضهم أن نواة المدينة كانت موجودة قبل حضوره وإنما جعلها مستقراً له فى المدة التى بقى هناك وتجمع السكان فيها وفيما حولها وكانت — حقيقة — هى النواة لهذه الحضارة الرائعة القائمة اليوم فى وادى ميزاب .

بهذا الحديث تنتهى الفترة الثالثة وينتهى معها العهد الأول من حياة بنى مصعب فى التاريخ الإسلامى ، و يبتدىء العهد الثانى من تاريخ هـــذا الشعب الكريم .

العهـــد الثانى

العهد الثانى لحياة بنى مصعب فى التاريخ الإسلامى يمتد نحو أربعة قرون فهو يبتدىء من أوائل القرن الخامس بعد استقرار نظام العزابة به . وبنائه المدن الثلاثة . وينتهى فى أواخر القرن الثانى بعد الانتهاء من بناء مدينتى مليـكة وبنى يزقن والتفـكير فى الانبعاث .

ولعل أبرز سمات هذا العهد عند سكان بادية بنى مصعب أنهم تحولوا عن آراء المعتزلة واعتنقوا المذهب الإباضى ، ثم إن أخلاقهم البدوية الجافة الخشنة بدأت تلين وتـكتسى نوعاً من اللطف والرقة . وأنهم صـــاروا يفـكرون عملياً فى تغيير حياتهم من النسق البدوى القلق المتغير إلى النسق التحضرى المستقر المقيم . فجعلوا يتجمعون فى مدن أو قرى كبيرة ويحفرون متعاونين ـ آباراً عميقة لإقامة زراعة مستمرة تعتمد على الرى الدائم . ثم أصبحوا يرحبون بمن يهاجر إليهم . فيستقبلونهم بكرم ، ويفتحون لهم صدورهم ، و فتحون لهم أبواب الحياة الـكريمة بينهم . ويستفيدون هم من خبرات أولئك القادمين من بلاد مختلفة فى المجالات المختلفة لوسائل الحياة . ولا سيما فى مجال الزراعة الثابتة المستديمة .

وهـكذا استمر هذا الشعب الـكريم طيلة هذا العهد فى كفاح متواصل من أجل الاستقرار والتحضر ، ودأب أبناؤه على البناء أربعة قرون كاملة لا يفترون ولا يتوقفون وإن كان اتجاههم فى الفترة الأخيرة من هذا العهد قد انصرف إلى جانب مادى غالباً ـ ربما كان الاهتمام فيه بالمحافظة على الموجود أكثر من الاهتمام بمزيد من التقدم نظراً إلى الأوضاع القاسية

المحيطة بهم والتى كانوا ينظرون إليها فى حذر وخوف وترقب ،

وفى الإمكان تقسيم هذا العهد إلى ثلاث فترات تتميز كل واحدة منها بظواهر وخصائص أوضح مما فى الأخرى وإن كانت جميعاً مترابطة متلاحمة يبنى آخرها على أولها وينسق السلوك فيها جميعاً نظام العزابة الذى ابتدأ تطبيقه مع أوائل هذا العهد .

١ ـ الفترة الأولى : الفترة الأولى من العهد الثانى لحياة بنى مصعب تمتد نحو قرن من الزمان إذ تبتدىء من أوائل القرن الخامس وتنتهى فى أواخره أو أوائل القرن السادس ما بين (٤٠٠ ـ ٥٠٠) تقريباً .

وأهم ما تمتاز به هذه الفترة من تاريخ بادية بنى مصعب أن سكانها قد اعتنقوا المذهب الإباضى بالفعل بدلا من عقائد المعتزلة وأنهم سمحوا بالهجرة لإخوانهم الذين اضطهدوا فى جهات أخرى أو ضاقت بهم الحياة لأسباب سياسية أو مذهبية أو اضطروا للهجرة إليهم تحت قسوة ظروف الطبيعة كما وقع لبعض سكان سدرانة ووارجلان ووادى أريغ . فتقبلوهم أحسن قبول ، وامتزجوا بهم أكمل امتزاج ، ثم أنهم اتحدوا فى عمل جاد متواصل لتكوين حياة حضرية مستقرة فى أخصب وديان الشبكة ـ وادى ميزاب ـ ولم ينته هذا القرن حتى تكونت ثلاث قرى كانت نواة لاستقرار الشعب المصعبى أو الميزابى، تلك القرى أو المدن هى العطف ـ وبدأت تتكون مع أول القرن الخامس ـ ثم بنورة ـ وبدأت تتكون فى العقد الرابع من نفس القرن ـ ثم غارداية وبدأت فى العقد الثامن من نفس القرن .

ولم ينته القرن الخامس حتى كان فى أحد أودية بنى مصعب ثلاث مدن آهلة بالسكان يقيم بها على الدوام من انتقل من الحياة الرعوية إلى حياة

الاستقرار من بنى مصعب ومن هاجر إليهم من مختلف الجهات كما يجعلها بعض من لم يتخلص من حياة البادية ومن تربية المواشى من بنى مصعب مآلا ومرجعاً يقيم بها أغلب فصول السنة ويلتحق بأنعامه فى بعضها حين يكون الالتحاق بها ضرورياً كفصل الربيع لاستخلاص النتاج بأنواعه فإذا انتهت المهمة رجع إلى تلك القرى ليستقر بها .

وقد اتضح اتجاه سكان هذه المدن إلى الاستقرار حينما اعتمدوا فى اقتصادهم على الزراعة بالدرجة الأولى فكانوا — يتعاونون فى تفان وإخلاص على استخراج المياه الجوفية بحفر الآبار التى تكون فى بعض الأحيان شديدة العمق . وكان اهتمامهم بالزراعة يزداد يوماً فيوماً وكان التحسن فى وسائلهم يظهر لهم من خلال المحاصيل السنوية التى تزداد كل عام ، ولم يقتصروا على الزراعة بل لقد التفتوا إلى الصناعة البسيطة التى تحتاجها البيئة وتوجد مواردها الأولية هناك . فمهرت أيدى صناعة الآلات الخفيفة المختلفة للزراعة ولاستخراج المياه ولجرف التربة أو نقلها ولتفتيت الصخور ونقلها ولصنع قوالب الطين والآجر فى بناء الحوائط والجدران ولاستغلال سعف النخيل وخشبه فى الأثاث المنزلى بمختلف أنواعه .

و بدو أن المرأة المصعبية نفسها قد أخذت حظها من التطور فقد كانت فى العهود السابقة مشغولة بمساعدة الأسرة فى عمليات الرعى المختلفة . وقصارى ما تستطيع أن تجيده من الصناعة إنما هى صناعة الفلائج التى تتكون منها الأخبية والبيوت . وكانت الصوف وهى أهم نتاج الماشية — تؤخذ فتباع فى أسواق الحضر ولم يشتغل بها إلا عدد قليل من العائلات المصعبية التى استقرت فى منازل قليلة أطلق عليها اسم (قصر

الصوف) أو (حصن الصوف) لأنه المكان الوحيد الذى كانت المرأة فيه تعرف صناعة الصوف . ولا شك أن اللغة السائدة فى ذلك الحين وفيما قبله هى اللغة البربرية ولذلك فقد كان يطلق على تلك المجموعة من المساكن التى يقال إنها سبقت مدينة العطف اسم (أغُرَمْ نتلزدت) والترجمة الحرفية لكلمة (أغُرَمْ) هى القصر أو الحصن . والترجمة الحرفية لكلمة (تلزدت) هى قطعة الصوف المحلوجة . وأعتقد أن البربر يطلقون كلمة (أغُرَمْ) التى معناها الحرفى هو القصر ويقصدون بها القرية لأن القرى البربرية فى القديم لا تخلو من قصور أو حصون .

أما النون فى أول كلمة (نتلزدت) فهو حرف إضافة .

ولما استقر بنو مصعب ومن هاجر إليهم فى مدنهم تلك وأعفيت المرأة من الأعمال التى كانت تزاولها فى البادية واستقرت فى البيت . وأصبح زوجها يقوم بأعمال الزراعة والصناعة قريباً منها ثم يعود اليها ـ وجدت أن فى وقتها فراغاً تستطيع أن تستغله لفائدة الأسرة وتحركت أصابعها الدقيقة الماهرة تغزل الصوف وتنسج منه الأكسية والبرانيس لأفراد الأسرة أو للسوق حيث تضيف دخلا إلى دخلها فى الزراعة أو الصناعة .

وأثبتت تعاون المرأة مع الرجل لتحسين اقتصاد الأسرة قبل أن تنعق زعيمات هذا العصر يطالبن باشتراك المرأة فى ميدان العمل بعدة قرون .

ولعل أهم ما تمتاز به هذه الفترة وما بعدها وما قبلها هو تطبيق نظام العزابة بتفاصيله وبه استطاع هذا الشعب أن يوحد القيادة ثم أن يوجه الجهود إلى أهم مجالات الحياة بدراسة ووعى وتخطيط .

٢ ـ الفترة الثانية : تمتد الفترة الثانية من العهد الثانى نحو قرنين

من الزمان أى من أوائل القرن السادس إلى أواخر القرن السابع .

هـذه الفترة تشبه أن تـكون امتداداً للفترة الأولى . فقد استمر بنو مصعب فى الاستقرار والتركز فى القرى التى تـكونت فى وادى ميزاب وشغلتهم الجوانب الاقتصادية فتفرغوا لها وانصرفوا إليها وبديهى أن اقتصادهم حينئذ كان ينبنى على الزراعة وقليل من الصناعة . وتوالت إليهم الهجرة من مختلف الجهات لما يتمتعون به من أمن وسلام وبعد عن التموجات الحركية للمغامرات السياسية ولما ينعمون به من استقرار فى أودية خصبة تـكفى لإعاشة عدد كبير من السكان إذا أحسن استغلالها . ثم لوجود تلك الوديان فى أمـكنة حصينة بعيـــدة عن أن تـكون متعرضة للمناوشات والاعتداءات وقد استمرت الحياة على هذه الوتيرة وعلى هذا النحو نحو قرنين من الزمان حتى كبرت تلك القرى وأصبحت مدناً فسيحة تعج بالسكان وتضيق بهم وكان السكان لا يزالون يكثرون بمن يهاجر إليهم وبمن يتحضر منهم ويستقر فى تلك المدن فيغير مجرى حياته من بداوة ترتبط بالماشية والمطر والـكلأ . إلى حضارة تزدهر بالزراعة والصناعة والتجارة وتمتاز بالاستقرار .

ولعل أوضح ما فى هذه الفترة ظاهرتان .

الأولى : مغامرات لليورقى . فقد ثار هذا الرجل على الموحدين طلباً للحكم ـ وكان يؤم أطراف المملـكة ونقاط الضعف فيرتكب فيها الأفاعيل . ومر بمنطقة الواحات فخرب سدراتة وعاث فساداً وإفساداً فى وارجلان ووادى أريغ وما كان فى طريقه إلى ليبيا . فتسبب بذلك فى هجرة أعداد وافرة من الناس إلى بنى مصعب ولا سيما أهل سدراتة فإنه لم يبق أحد بعد

فقنة الميورقى وهاجر أغلب سكانها إلى بادية بنى مصعب وبذلك تضاعف عدد السكان فى وادى ميزاب .

الثانية : بنو مصعب أنفسهم فى هـــذه الفترة كانوا متخوفين أشد التخوف من الأحداث التى تجرى فى جوارهم . وكانوا يتوقعون كل يوم أن يمسهم ما يمس غيرهم . وكان كلما ورد إليهم وفد من المهاجرين المضطهدين من أى جهة كانت . نقل إليهم الأخبار المؤلمة عن المآسى التى تقع على الناس بسبب حماقات المغامرين وطلاب الحكم . فكانوا يتوجسون خوفاً أن يلحقهم ما لحق غيرهم . ولذلك فقد اعتصموا بصمتهم ووحدتهم ، وفرحوا بكل من هاجر إليهم . باعتباره قوة لهم يستفيدن منها فى الدفاع عن أنفسهم لو نزل بهم مكروه . وقد نتج عن هذا بعض الجمود فى الجانب العلمى لأن السكان — وعلى قيادتهم مجالس العزابة — شغلوا فى هذه الفترة بتدبير وسائل الأمن والحيطة وبالاستمرار فى تحسين الجانب الاقتصادى . فلم تتغير عندهم الحياة كثيراً عما كانت عليه فى الفترة السابقة إذا استثنينا جانب ازدياد السكان بالهجرة ازدياداً مطرداً أو التوسع فى ناحيتى الزراعة وتمدد البناء بطبيعة الانكماش فى الوادى وتضاعف السكان مع ضيق المجال الحيوى الذى يضطرب فيه أولئك القوم للحصول على ضروريات الحياة أو بعض كالياتها لو ساعدتها الظروف . وبما أنهم بقوا نحو ثلاثة قرون على نمط واحد من الحياة فلم يضيفوا مدناً جديدة إلى مدنهم الثلاث ، ولم تبرز لهم جهود واضحة متفوقة فى الميدان العلمى . ولم يسجل لهم انطلاق خارج وطنهم المحدود . فقد اعتبر بعض المؤرخين هذه الفترة بمثابة غفوة خفيفة . أو استلقاء للراحة والاستجمام .

الفترة الثالثة : تمتـــد الفترة الثالثة من العهد الثانى نحو قرن من

الزمان إذ تبتدىء من أوائل القرن الثامن وتنتهى ببداية التاسع وهى تشبه أن تكون صورة للتمدد والتمطى فوق الفراش استعداداً للنهوض والاندفاع. إن هذا الشعب بسبب ظروف الحياة القاسية التى عاشها طيلة الفترة السابقة — فى خوف متوقع من الخارج وكفاح مستمر لاستثمار الأرض فى الداخل — كان كأنه قد استلقى على الفراش الوثير للراحة أو النوم وهو فى هذه الفترة يتمدد ويتمطى ويمسح عينيه بعد اليقظة ليندفع إلى الكفاح المستمر.

لقد انتبه بنو مصعب من غفوتهم القصيرة فوجدوا أن أعدادهم تضاعفت وأن المدن السابقة قد غصت بهم حتى لم يعد فى إمكانها احتمال المزيد، وأنهم مضطرون إلى التوسع وزيادة المدن والقرى فى باديتهم الفسيحة وأوديتهم الطويلة ورغم إحساسهم بضيق المكان فى وادى ميزاب ورغبتهم فى استغلال بقية الأرض فقد آثروا أن يزيدوا قرى قريبة من القرى الأولى. لأن صدى المغامرات العدوانية السابقة التى وقعت على من جاورهم بل على بعضهم، لا يزالون يسمعون صداها فى آذانهم. ولأن جميع الظروف المحيطة بهم تدعوهم إلى التجمع لكى لا تفرق المسافات بينهم فيجد فيهم أصحاب المطامع فرصة للعدوان، ولم ينته القرن الثامن الهجرى حتى تكونت إلى جوار القرى السابقة قريتان أخريان هما مليكة وبنى يسقن.

ويبدو أن أوائل سكان هاتين القريتين كانوا من المهاجرين الجدد الذين وردوا على الوادى فرأوا ما يعانيه من ضغط سكانى، وقدروا أن المدن السابقة أصبحت فى حالة لا تستوعب معها أكثر مما فيها ورأوا أن كل تزايد سكانى فيها يؤثر على إمكانياتها الاقتصادية فآثروا أن ينفسحوا بعض الانفساح عن السكان السابقين وبذلك صار الوادى يتكون من مجموعة

سكنية من خمس قرى تشبه أن تكون أحياء من مدينة واسعة . فإن المسافة بين أبعد نقطتين من هذه القرى الخمس لا تزيد عن ستة أميال .

وبينما كان وادى ميزاب قبل القرن الخامس الهجرى مثل زميليه : وادى زقرير ووادى النساء ، كل ما فيه من حياة أنه كان منتجعاً لأصحاب الماشية يؤمونه بعد مسيله فى بعض فصول السنة فأصبح خلال أربعة قرون فقط مركزاً لحياة اجتماعية متحضرة يعيشها شعب امتاز بالإيمان والإخلاص والجد والمثابرة على العمل الذى لا يتوقف ولا ينقطع . وتكونت فيه مدينة مستبحرة العمران تتكون من خمسة أحياء كل حى منها يحمل اسم قرية . وكما يصح أن يعتبر ذلك الحى حياً من مدينة كبرى أو ضاحية من ضواحيها يصح أن يعتبر بلداً عامراً يموج بالحركة والحيوية . وصار الوادى يشتمل على بساتين ورياض غنية الإنتاج وافرة الغلال جميلة التنسيق متعددة الأنواع عادلة التوزيع .

وبينما كان هذا القسم من بادية بنى مصعب تجرى فيه الحياة العمرانية كما وصفناها فى هذه الفترة ـ وفى الفترة السابقة ـ كانت الجهات الأخرى من البلاد المجاورة كبلاد سدراتة ووارجلان وأريغ وسوف وتجديت وواغلانت وأجلو وغيرها تكافح فى استماتة من أجل البقاء بل أن منها من لفظ أنفاسه وهمد إلى الأبد وذلك بسبب ما تعرض له من العاملين القاسيين هما :

١ ـ عامل الطبيعة من الجفاف وندرة الأمطار وهبوب رياح الجنوب باستمرار محملة بالرمال الزاحفة لمدد طويلة .

٢ ـ عامل بشرى يتمثل فى فتن وعداوات وغارات للسلب والنهب قام بها الأعراب البداة من بنى هلال ومن سلك مسلكهم من قبائل البربر .

وكان أقسى من كل ذلك مغامرات طلاب الحكم كابن غانية ومن سلك طريقه فى البحث عن السلطة أو البحث عن المال .

بهذا تنتهى الصورة التى أردنا أن نعرضها من حياة بنى مصعب فى عهدها الثانى من تاريخها الإسلامى .

obeikandl.com

العهد الثالث

العهد الثالث لبنى مصعب فى التاريخ الإسلامى يمتدّ نحو أربعة قرون ونصف إذ يبتدىء من أوائل القرن التاسع وينتهى فى منتصف القرن الثالث عشر تقريباً ويمتاز هذا العهد بأنه عهد الانطلاق[1] الكامل فى جميع ميادين الحياة ، ولكن فى الإطار الإسلامى الجميل .

وقد اتخذ هذا الانطلاق عدة اتجاهات متوازية متساندة متعاونة :

فقد انفتح باب للاتجاه العلمى فقدم إليهم وفد من جربة والجبل يشتمل على خيرة من أفاضل العلماء والأعلام العاملين فقادوا الحركة العلمية وتزعموا حركة الإصلاح عموماً ، واندفع إليه مجموعة من خيرة الشباب الأذكياء تكوّن منهم فيما بعد عناصر صالحة للزعامة والقيادة .

وانفتح باب للتوسع الحيوى والانطلاق العمرانى فتأسست مدن جديدة فى بادية بنى مصعب كانت إحداها على وادى النساء وكانت الأخرى على وادى زقرير . وبذلك عمرت جميع الأودية التى تكوّن الحبال الرئيسية لأرض الشبكة والتى تمثل شرايين الحياة لبادية بنى مصعب .

---

(١) أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن باكلى حفظه الله يرى غير هذا الرأى فهو يقول فى مقدمته لكتاب النيل ما يلى : « كان القرن الثانى عشر والثالث عشر فترة ركود بل انتكاس بالنسبة للحياة العلمية بميزاب ، ضوءل شعاعه ، وركد حبله حتى كاد ينبتر لولا أن تداركه لطف الله فاطلع فى سمائه بدراً منيراً أرسل أشعته على زواياه فأنارها ذلك هو الشيخ أبو زكريا يحي بن صالح الأفضلى » ولعل أستاذنا الكبير حين كتابته للمقدمة كان متأثراً بما كتبه صاحب النيل نفسه على أستاذه أبى زكرياء ولا شك أن أبى زكرياء وضياء الدين كانا حلقتين متينتين مترابطتين فى حركة الانبعاث التى بدأت فى القرن التاسع الهجرى » .

وانفتح باب للانطلاق السياسى فأصبح ذلك الشعب المنكمش الذى كان يقبع فى مناطق وعرة محصورة من أرض الجنوب خائفاً يترقب .

أصبح من ذلك الشعب رجال يناقشون أعقد المسائل السياسية فى عصرهم ويرتادون أرفع الدوائر الحكومية . ويشاركون مشاركة فعالة فى تكوين الآراء والتخطيطات لوضعهم السياسى والاقتصادى ضمن الشعب الجزائرى الكبير .

وانفتح باب واسع للانطلاق الاقتصادى فبعد أن كان هذا الشعب يعيش فى واحات الجنوب على حياة مبنية على زراعة بسيطة وصناعة ساذجة وتربية ماشية مضطربة . انطلق فى هذا العهد إلى ميدان التجارة الحر الفسيح، وصار يمارسها متنقلا من بلد إلى بلد مكوناً أعرافاً وتقاليد ونظماً لو وجدت من اهتم بها ودرسها بعمق لاستخلص منها نظريات اقتصادية رائعة فى ميدان التجارة ، ونتج عن انطلاقهم هذا فى ميدان التجارة غيبة طويلة عن الوطن ، وانتقال متتابع من مكان إلى مكان[1]. فصار بذلك ـ ذلك الشعب الذى قضى زمناً غير قصير ـ منكمشاً فى الواحات ، منعزلا على نفسه ـ يملأ مدن الجزائر وقراها بل وخارج الجزائر بالحركة والنشاط . ويتحكم فى الاقتصاد العام للبلاد .

وقد ترتب على هذا الانطلاق خارج الوطن وعلى الغيبة الطويلة عدد من المشاكل درست دراسة وافية واتخذت لها حلول روعيت فيها جميع الجوانب التى تتأثر بها حياة مجتمع مسلم فلم يهمل فيها الجانب الدينى ولا

---

(١) حركة الانبعاث الاقتصادى بدأت فى القرن التاسع الهجرى بتجارة أولية محدودة ثم تأكدت بالاتفاقية التى جرت بينهم وبين خير الدين فى أوائل القرن عاشر وتركزت بعد العملية الفدائية فى نصف برج (بوليلة) فأخذت مجالها بالكامل .

الجانب الخلقي ولا الجانب النفسي ولا الجانب الاقتصادي فاستحدثوا في كل قرية بها عدد من تجارهم أو عمالهم مركزاً للاجتماع وهيئة تتولى الإشراف المهني على أصحاب المحلات التجارية . وتقدر أجور العمال وتزود الجميع بالرعاية التي تحمي أخلاقهم ودينهم من أن تؤثر عليها الغربة الطويلة وتراقبهم مراقبة دقيقة في مهجرهم حتى لا ينفرط عقد أمتهم ولا تذوب خصائصها التي تمتاز بها . كما جعلوا مدارس خاصة تتولى تعليم أبنائهم الذين يعيشون أو يشتغلون مع آبائهم مراعين أن تكون خطة الدراسة غير متعارضة مع أوقات العمل ثم سنوا مجموعة من القوانين والقرارات في شئون المجتمع والأسرة كان لها أطيب الأثر على حياتهم . وقد نعرض لبعض هذا في فصل خاص .

وفي الإمكان أن نقسم هذا العهد — أيضاً — إلى ثلاث فترات تتميز كل منها ببعض السمات الخاصة بها أو التي تكون أكثر وضوحاً منها وهي جميعاً مرتبطة بعضها ببعض ينبني آخرها على أولها .

١ — الفترة الأولى : تمتد الفترة الأولى من العهد الثالث نحو قرنين من الزمان إذ تبتدىء من أوائل القرن التاسع وتنتهي في أواخر القرن العاشر بعد وفاة العلامة أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المصعبي .

وأظهر ما تتميز به هذه الفترة أنها فترة دبيب اليقظة في أوصال المجتمع الذي كف عن الحركة في غفوة قصيرة ، فلما فتح عينيه ذُعر لأنه وجد نفسه واقفاً بينما ركب الحياة يسير. ووجد محافل العلم عنده، ومجالس العزابة خالية من فطاحل العلم وكبار الأئمة ، ولا يشغلها غير فقهاء من الدرجة المتوسطة يعتمدون على استظهار القرآن الكريم وشيء من السنة النبوية ويعتمدون

فى فقههم على ما حفظوه ويجدونه مسطوراً فى الكتب فينقلونه للناس فى جمود ودون تصرف . وقد اعتاد بنو مصعب من قبل أن لا يخلو موطنهم من كبار العلماء فأسرعوا إلى استقدام عدد منهم ليشغلوا المراكز الهامة وينيروا الطريق فى دروب الحياة المختلفة ، ولبى إخوانهم فى جربة وجبل نفوسة طلبهم فجاءتهم البعثة العلمية التدريسية من ثلاثة علماء أفاضل . كان أعظم شخصية فيها هو العلامة الكبير الشيخ سعيد بن على بن بوحميدة بن عبدالرازق بن سعيد الخيرى الجربى ، فباشرت البعثة حالا مهمتها وقامت بواجبها أحسن قيام . ووضع الشيخ سعيد الخيرى الذى اشتهر (بعمى سعيد) الأسس الأولى لنهضة ذلك الشعب الكريم بعد يقظته فقد التف حوله جماعة من نبغاء الطلاب فبلغوا على يديه درجات سامقة من العلم . ووضع شعاراً خاصاً للعزابة . وأسس لهم المجلس المعروف بمجلس عمى سعيد ، الذى يجتمع فيه رؤساء مجالس العزابة وتبحث فيه قضايا جميع المدن الميزابية ، وتعرض فيه جميع المشاكل فتتخذ لها الحلول المناسبة . وفى ذلك المجلس تصدر القرارات العامة لتنظيم الحياة وسير الناس .

وبالإضافة إلى الإصلاحات الاجتماعية والدينية التى كان يتحمل أعباءها الثقال بكفاءة ونجاح . كان هو وزملاؤه يشتغلون بالتدريس ونشر العلم والمعرفة فى أماكن متفرقة حتى تخرّج على أيديهم عدد من كبار العلماء كانوا هم السند القوى لدعائم النهضة ولو لم ينجح على أيديهم إلا أبو مهدى عيسى بن إسماعيل لكفى به نجاحاً .

إن هذه الفترة — حسب دراساتى الناقصة — تعتبر عصر انتفاضة لبنى مصعب من غفوة خفيفة ، وقد سبقها فترة التطلى وسوف تعقبها فترات

الانطلاق الكبير . ففيها إذن وضعت اللبنات الأولى لأسس النهضة الشاملة فيما بعد .

ومنذ انطلق هذا الشعب من غفوته فى أوائل القرن التاسع لم يتوقف عن العمل حتى بلغ مرحلته الحاضرة ، وهو سائر بخطوات فسيحة فى منهج إسلامى سليم لبناء حضارة إسلامية فريدة فى هذا العصر المادى الصرف ركناها الالتزام بالإسلام عقيدة ودينا وخلقاً وسلوكاً ، والاستفادة من الاكتشافات العلمية بناء وعمراناً وحضارة وحياة .

٢ ـ الفترة الثانية : فترة التمدد المادى أو كسر الكتكوت القشرة البيضة، وتمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان إذ تبتدىء من أوائل القرن الحادى عشر وتنتهى فى أواخره . وتتميز هذه الفترة بظاهرتين واضحتين إحداها : أن سكان الوادى أحسوا بضيق المجال الحيوى لهم ، وأن وادى ميزاب وحده أصبح مختنقاً بضيق من الناحيتين العمرانية والاقتصادية، وأنه لابد لهذا الشعب المحصور فى هذا الوادى الضيق بين الجبال المرتفعة من الانفساح والانطلاق ، ولابد من ارتياد أماكن أخرى فى نفس البادية تكون صالحة للعمران . وانطلقت الدفعة الأولى من الرواد الشجعان تلتمس مكاناً لها تستقر فيه فاختارت موقعاً على وادى النساء، وانطلقت بعدها دفعة أخرى من الرواد الشجعان تلتمس لها مكاناً تستقر فيه أيضاً فاختار لها موقعاً على وادى زقرير . وبذلك تأسست المدينتان الزاهرتان : القرارة وبريان . وانضم إلى كل دفعة من هذه الدفعات بعض سكان تلك المناطق ممن لايزالون على حياة البادية فتحضروا واستقروا فى تلك المدن الجديدة كما انضاف إليها بعض المهاجرين من جهات أخرى بعيدة طلباً للأمن والاستقرار، وبتأسيس

هاتين المدينتين العامرتين أصبحت أرض الشبكة، أو ما كان يطلق عليه بادية بنى مصعب عامرة بحضارة مزدهرة فى أهم ودیانها الخصبة، بل لقد أصبح بنو مصعب على الحقيقة يعمرون كامل باديتهم ويستغلون جميع وديانهم.

الظاهرة الثانية: ناجمة عن هذه الانطلاقة، فما خرج الكتكوت عن قشرة البيضة، وتمت له الانطلاقة الأولى حتى تكونت انطلاقة أخرى فى الميدان الاقتصادى. وبدأ الناس يجمعون رؤوس الأموال الصغيرة من محاصيلهم الزراعية المحدودة أو من أثمان مواشيهم بعد بيعها ثم ينطلقون إلى الغربة حيث يكونون المتاجر فى مختلف البلاد.

وقد كانت التجارب الأولى مشجعة رغم ما يكتنفها من صعاب ومتاعب، وأصبح التنافس واضحاً بين الشباب المتحمس المتوثب وبدأت نظرة المجتمع التى كانت مقتصرة على تقدير الزراعة ووسائلها. واحترام العضلات القوية التى تستثمر الأرض خيراً من غيرها ـ بدأت تلك النظرة تتجه إلى تكون اقتصادى مبنى على أسس تجارية. وبدأت ـ تبعاً لذلك ـ قيمة التاجر ـ الذى يغيب زمناً ثم يعود بمكاسب تفوق كثيراً مكاسب زميله الذى بقى يشتغل بالزراعة ـ ترتفع فى نظر المجتمع. لا سيما وأن المشاريع العمرانية، والمرافق الجماعية أصبحت تعتمد على التجار أكثر مما تعتمد على المزارعين.

أما من الجانب الثقافى فيبدو لى أن هذه الفترة كانت فترة تبادل ثقافى بين بنى مصعب من جهة وجربة أو جبل نفوسة من جهة أخرى وأن مجىء عمى سعيد فى الفترة السابقة كان بمثابة تشجيع للاتصال الثقافى واستمراره بين هذه البلاد ولا سيما بين بنى مصعب وجربة، ويكفى للدلالة على هذا الموضوع مجىء طائفة من جربة ونفوسة للدراسة على أبى مهدى

كما أن رحيل الشيخ محمـــد المصعبى والد الشيخ يوسف فى أواخر القرن الحادى عشر واستقراره فى جربة يقوى ما نراه من حركة علمية نشيطة بين البلدين يتبادلان فيها وسائل الثقافة ، ولعل الذى أضفى بعض الغموض على أهمية البعوث العلمية من بنى مصعب إلى جربة أو جبل نفوسة والعكس . أنه لم تلمع - من بين تلك الأفواج شخصيات فى مستوى عمى سعيد أو أبى يعقوب يوسف المصعبى[1] ممن يتركون دوياً لا يحصره الزمان ولا المكان .

لقد كانت هذه الفترة هى فترة التجسس لمواضع الأقدام فى كل مجال من مجالات الحياة . فقد كسرت القوقعة وخرج منها الكائن الحى يستنشق النسيم والعبير ، وبدأ ينفض أجنحته ويتطاول بعنقه ليحلق فى الأجواء .

٣ ـ الفترة الثالثة : تمتد الفترة الثالثة من العهد الثالث نحو قرن ونصف ، فهى تبتدىء من أوائل القرن الثـــانى عشر وتنتهى فى منتصف القرن الثالث عشر . كان بنو مصعب فى العهود السابقة لهذا العهد يسكنون قرى تشبه أن تكون مدينة واحدة وهم يعيشون فيها على حياة زراعية سقوية أو تربية ماشية يتولى رعايتها رعاة متخصصون ينزاحون بها بعيداً عنهم فى مواطن الكلأ فكان مجال حركتهم بين البستان والبيت والمسجد ، فالرجل منهم لا يغيب عن أهله إلا فترات قليلة فى اليوم . فلم يكونوا يحتاجون إلى

---

(١) مما يؤيد هذا الرأى أن عدداً ضخماً من طلاب العلم التحقوا بمدرسة القطب رحمه الله ومنهم رجال فقه ودين أفادوا بلادهم عندما رجعوا إليها ، ومن طلاب الجبل لم يشتهر إلا الزعيم سليمان باشا الباروني ، أما بقية الأسماء فهى ذاهبة فى الاختفاء مع قرب الزمن ولن يمضى هذا الجيل حتى يغطى الجهل أولئك الناس الذين قاموا بدور هام فى حياة الأمة إذا لم تبادر يد غيورة فتكتب عنهم .

الأسفار والتنقل . فإن أبعد نقطتين عن قراهم الخمس لاتزيد عن ستة أميال. فلما تأسست مدينتا القرارة وبريان أصبح السفر ضرورة من الضرورات . ـ على أقل تقدير لصلة الرحم بين سكان المدن السبع ولا سيما فى المواسم والأعياد ـ ولما بدأوا يشتغلون بالتجارة خارج وطنهم وجدوا أنفسهم محتاجين إلى عدة أشياء لا تستقيم حياتهم الجديدة إلا بهـا . وتلك الأشـياء هى التى تكوّن الظواهر الخاصة بالفترة الثالثة لهذا العهد . ويبدو لى أنها يمكن أن تتلخص فيما يلى :

الظاهرة الأولى : لما بدأت جماعات التجار ذاهبة آتيـة بين المدن الـكبرى فى القطر الجزائرى وأراضى الشبكة لاحظ ذلك بعض المغامرين الذين يعيشون على السلب والنهب وقطع الطرق ، واستنتجوا أن التجار الذين يعودون من كبريات المدن فى الجزائر إلى صحراء الجنوب بعد غياب طويل ـ لابد أن يكونوا محملين بكثير من المـكاسب ، فـكانوا يتعرضون لهم فى الطريق، وكثيراً ما كانوا يسلبون أموال الضعاف منهم؛ فتولدت عندهم لذلك فـكرة رد الفعل ومجابهة العدوان ، فـكان المسافرون منهم يتخذون الاحتياطات اللازمة للحراسة من امتلاك السلاح ومعرفة استعماله عند اللزوم واستصحاب الحراس الأشـداء الأمناء فى تلك السـفرات الطويلة . وبذلك تـكوّن لهم فى هذه الفترة وما بعدها عدد من الأبطال الأشـداء الشجعان الذين يخشى قطاع الطرق جانبهم ؛ فصاروا يتحاشون قوافل بنى مصعب ويبتعدون عن طريقها. وأصبح أولئك الحراس كأنما يمتهنون حرفة الحراسة؛ لهم أجور معينة عن كل رحلة من الرحلات بين مدن الصحراء والتل حتى تتجاوز قوافل المسافرين مناطق الخطر إلى الشمال أو إلى الجنوب .

الظاهرة الثانية[1] : أحس التجار — غير الميزابيين — فى مختلف المدن بمنافسة جديدة خطيرة — على ما ظهر لهم — فلم يرتاحوا لها ، ووقفوا معها موقف المعارضة والرد ، ونتج عن ذلك عدد من المشاكل كانت تصل إلى السلطة المحلية بمختلف الأساليب والوسائل . فوجد المصابيون أنفسهم فى حاجة ماسة إلى من يتولى توضيح موقفهم — فى الحالات الفردية والجماعية — والدفاع عن مصالحهم ، وإقناع المستائين من منافسيهم بأن التجارة ميدان حر متسع للجميع . وكما هو صالح للمنافسة وإظهار التفوق والعبقرية الاقتصادية ، هو صالح أيضاً للتعاون والاستفادة المشتركة وتوحيد الجهود لبنـــاء صرح الاقتصاد الوطنى على يد التاجر الأمين النزيه ، فتكوّن لهم مجموعة من أفذاذ الرجال فى جميع هذه الجوانب . فمنهم من اصطبغ مسلكه بالزعامة السياسية ، فكان يتصل بالأجهزة الحاكمة فى مختلف أماكنها . ومنهم من اشتهر فى الميادين الاجتماعية فكان يتصل بالأعيان وكبار التجار لدراسة المشاكل الناجمة عن سوء التفاهم بين الأطراف المختلفة واتخاذ الحلول اللازمة لها . ومنهم من يقوم بالدعوة إلى التوفيق والمساعدة والتعاون . ومنهم من يستخلص النتائج من التجارب ويدرس المواقع واحتياجاتها والأيدى الماسكة بدواليب الحركة وشدتها وتوزيعها ، ويتخذ بناء على ما يستخلصه من كل ذلك آراء له يقدم عنها توصيات واقتراحات .

الظاهرة الثالثة : أحس المصابيون — بناء على انطلاقهم — باحتياجهم إلى عناصر مثقفة قوية من الرجال الأكفاء فى جميع الميادين ثقافة تؤهلهم

---

(١) هذه الظاهرة فى الواقع فى حاجة إلى دراسة متعمقة متغلغلة ولعل أحد الشباب المثقف من بنى مصعب يتولى القيام بهذه المهمة قبل أن يختفى هذا الجيل الذى لم يبق إلا أفراد منه فتختفى معه كثير من الأسرار والحقائق وتضيع إلى الأبد .

لمراكز قيادية من جهة . وإلى نشر العلم بين كل الطبقات من جهة أخرى ، فعملوا على استجلاب مدرسين أكفاء ، وإلى إرسال بعثات علمية تعود إليهم بعد نجاحها . وبذلك تمت الانطلاقة فى جميع الاتجاهات على النمط التالى :

فقد أمكن الانسجام فى البلاد الجديدة التى اختارتها أى مجموعة منهم لعملها . واقتنعت الدوائر الحكومية أنه يجب أن تكفل الحرية لهذه الانطلاقة القوية .

وفهمت العناصر الحاكمة قيمة هذه الحركة التجارية فى البلاد وأثرها على الاقتصاد العام فسمحت لها بالنشاط ، وفتحت لها الميادين ، وتعهدت لها بالحماية — وإن لم توف لها بذلك — ثم أمنت الطرق بسبب اتخاذ الحراسة القوية الذاتية والاعتماد عليها حتى أصبح لتلك الحراسة نظم وأعراف .

وتكوّنت زعامات اقتصادية وسياسية واجتماعية ، تولت معالجة جميع المشاكل الناجمة عن أى وضع من الأوضاع — واتخذت لها الحلول المعقولة المقبولة .

ثم بدأت النهضة العلمية تؤتى ثمارها ، فتزود المجتمع بمثقفين ينهضون بأعباء العمل بجدارة واستحقاق ، كما تكونت شخصيات علمية مرموقة أصبحت تتمتع بكل احترام وتقدير . لا من المجتمع المصمى أو الإباضى فقط ، وإنما من المجتمع الإسلامى فى المغرب الكبير كله بما فيه ليبيا ، ولعل أبا يعقوب يوسف بن محمد أوضح مثال لذلك .

ولعل من أوضح خصائص هذه الفترة ، أنه اجتمع فيها ثلاثة من الأعلام هم : أبو يعقوب يوسف بن محمد المصمى الذى يعتبر فى عصره زعيماً عاماً

لإباضية المغرب . وجميع الأوساط العلمية والسياسية ـ فى الجزائر وتونس وليبيا ـ تعرف مواقفه وتقدرها له وقد دافع عن الإباضية ـ فى حرارة ـ بلسانه وقلمه فى جميع الأوساط الرسمية وغير الرسمية ، وحصل على الإعجاب والثقة والتقدير فى كل المجامع التى حضرها .

وأبو زكرياء الأفضلى الذى يعتبره أكثر المؤرخين مبدأ للنهضة الحديثة ، ويرونه موقظ بنى ميزاب من نوم عميق . وضياء الدين الثميني الذى أرسى قواعد النهضة ؛ ومن مجهوداته انطلقت الحركة العلمية الإباضية فى الأقطار المغربية الثلاثة ، بل إن كتبه أصبحت عدة أصحابنا فى المشرق أيضاً .

وفى منتصف هذا القرن ـ القرن الثالث عشر ـ تنتهى الفترة الثالثة وينتهى معها العهد الثالث من حياة بنى مصعب ليبدأ العهد الرابع وهو حافل بمجموعة من الأحداث الهامة . منها استلام القطب رحمه الله لراية القيادة ثم أحداث جانبية أخرى كفتن بنى جلاب وبوشوشة ، والاحتلال الفرنسى وما تبع ذلك من أحداث ووقائع .

وأحسب أن العهد الرابع يبتدىء بالقطب رحمه الله ويمتد فترة قصيرة ربما كانت أقل من قرن ، وينتهى بعد وفاته بقليل ، ولعل فى هذا العهد ـ على قصره ـ من الأحداث والظواهر ما يربو على جميع ما عرفناه للعهود السابقة .

أما العهد الخامس فيبتدىء بالحركة التى قام بها تلاميذ القطب ، وعلى رأسهم الشيخان العظيمان أبو إسحاق وأبو اليقظان رحمهما الله ، ثم قادها بكفاءة وبراعة أستاذنا الفاضل الشيخ بيوض حفظه الله وسلمه . ويمتد هذا العهد إلى ما شاء الله .

ولما كان هذان العهدان ـ (الرابع والخامس) زاخرين بالأحداث والحركات ،سواء ما كان منها نابعاً من داخل الأمة نفسها أو من موقفها من القضايا الإسلامية عموماً، أومن تطور العصر وتأثيره فى حياة الشعوب جميعاً لا سيما فى قضايا التربية والتعليم . أو ما كان ناتجاً عن الكفاح الطويل المرير للاستعمار البغيض الذى ابتـــلى به المغرب الإسلامى الكبير . وقد وقف القطب رحمه الله ـ فى عهده ـ ضده بما أوتى من قوة وحجة ودعوة،فسه منه أذى كثير بلغ إلى حد السجن ووقف أفلح حفظه الله ضده أيضاً بما يملك من قوة وحجة ودعوة ولم يتزحزح عن موقفه ـ على ما ناله من الأذى ـ حتى أدبر الاستعمار عن البلاد كما يدبر الأعصار المدمر مخلفاً وراءه الأنقاض والغبار والدخان ، فجاءت بعده يد الاستقلال وأزالت الأنقاض وسكنت الغبار وأطفأت النار فانقشع الدخان .

رأيت أن أؤجل الحديث عنهما وأن أفضلهما عن العهود السابقة لغزارة مادة الحديث فيهما .

ولعل الله تبارك وتعالى ينمىء فى الأجل، ويسر لى العمل،فأتم هذه الحلقة من هذا الكتاب بجزء مستقل عن العهد الرابع وبعض الخامس ، ولله عاقبة الأمور .